

بطعم الجمر

رواية

بطعم الجمر

رواية

أسعد الأسعد

الطبعة الاولى 2014

دار الجندي للنشر والتوزيع القدس

0097022340035-info@aljundi.biz

مونتاج: اسامة سلهب

جميع حقوق الطبع محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار أو طباعة أو ترجمة هذا الكتاب أو جزء منه دون إذن أو موافقة الناشر.

All rights reserved, no part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

أسعد الأسعد

بطعم الجمر

رواية

obeikandi.com

إلى رباب

التي سكنت زوايا ذاكرتي

وزيد الذي حمل بعض ملامحي

وها برحت تفاصيله تلاحقني أينما رحلت .

أسعد

obeikandi.com

همَّ بمواصلة سيره ، لكنه تراجع حين ظهر قارب صغير من أسفل كوبري قصر النيل ، تبينت له ملامحه في انعكاس أضواء النيون ، الممتدة على طول البنايات المحيطة بنهر النيل ، اعتقد للوهلة الأولى أنَّ حوتاً ضلَّ طريقه ودخل من البحر المتوسط عبر نهر النيل ، حتى وصل إلى القاهرة بحثاً عن الدفء والأمن ، ابتسم وقد أدرك سذاجة الفكرة ، وراح يحدِّق في القارب الصغير ، يشق طريقه عبر المراكب السياحية المتناثرة على سطح النيل ، تحمل السائحين ببطء وتؤدَّة ، حتى يخیل للرائي أنها تقف هناك ساكنة ، ومياه النيل تنساب مسرعة إلى الشمال مخلفة وراءها مراكب مختلفة الأشكال والأحجام .

كانت المراكب مضاءة جميعها ، عدا المركب الصغير ، الذي شدَّه وجعله يتسمر مكانه على ضفة النيل ، قرب فندق شبرد .

كيف يخاطر هذا المركب الصغير بالإبحار دون أضواء ، وسط زحام المراكب من حوله؟!.. راح يحدث نفسه وقد شدَّه المركب .

يشبهني هذا الصغير في مخاطرته ، فبعد ساعات سأغادر إلى العريش في طريقني إلى غزة ، ولست أدري إلى أين تأخذني الطريق .

ظلَّ نظره معلقاً في المركب حتى تحوَّل إلى نقطة سوداء على صفحة النيل ، وغاب عن ناظريه ، أحسَّ بيدٍ تلامس طرف يده ، أفاق من شروده ، وقبل أن يسحب يده ، كان صوت صبيٍّ متسولٍ يتوسل إليه أن

القاهرة لا تنام.. والليل ستر للهائمين على وجوههم بحثاً عن لذة شاردة ، أو صفاء الذاكرة المتعبة .

- 8 -

الجبسور والكباري الواصلة بين ضفتيه ، حتى يخيل إليك ، أن الملايين من البشر ، لا بد أن يمرّوا من هنا في طريقهم إلى أشغالهم ، وأماكن عملهم ، من هنا تبدأ الحياة ، ومن هنا يستمد أهل القاهرة عزيمتهم ، يتباركون بنيلهم ويطلبون السعد لنهارهم ، حدّق في صفحة النيل ، كأنها ينتظر العروس التي كان المصريون القدماء يلقون بأجملهن إلى أعماقه ، علّها تحمي مصر من غضب النيل وفيضانه.. ولعل آخرها كان بالأمس القريب ، إذ إن هدوء مياهه توحى بذلك ، حدّث نفسه ، وقد ارتسمت على شفّتيه ابتسامة اختلطت بذاكرة تبعثرت ، فلم يعد يقدر على جمع شتاتها ، أو تحديد معانيها..

أحس برغبة في الجلوس ، عندما وقع نظره على مقعد خالٍ على الرصيف المحاذي لكورنيش النيل.. تقدم وقد أسرع الخطى ، كأنها يخشى أن يسبقه أحد إليه.. ألقي بجسده المنهك على المقعد ، فيما راح يدور بنظره كأنها يتعرّف على المكان.. قبل أن يقترب منه رجل في أواسط العمر.. يحمل في يده مكنسة طويلة وباليد الأخرى يجرّ عربة صغيرة ، توقف الرجل قبالة محدقاً به.. همّ بالوقوف ومغادرة مقعده ، وقد أدرك أنّ الرجل يستأذنه بإخلاء المكان ، كي لا يعلق به شيء من قذارته ، لكنه توقف حين بادره الرجل بالسؤال .

- يبدو لي أنك غريب ؟

ابتسم زيد قبل أن يجيبه .

- وكيف عرفت ؟!

- للغريب طباع تفضحه .

- وما الذي يفضحني ؟
- أهل البلد لا يأتون إلى هذا المكان في مثل هذه الساعة ، وإن فعلوا فليس وحدهم.. ترى ، ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت .. إلى هذا المكان البعيد ؟!
- لم أخطط للمجيء إلى هنا ، أخذتني الطريق .
- بل أخذك شروذك ، وما يدور في ذهنك..
- ربما .
- بلى.. هو ذاك.. أنت لست هنا.. لا أدري أين.. لكنك لست هنا..
- كلنا هكذا.. نمشي ولا ندري أين تأخذنا الطريق.. كأما نبحت عن طريق غير التي نسلكها..
- الناس تمشي وكلما أوغلت في طريقها.. تبكي الذي مضى.. وتتحسر على زمن كانت تشتهي أن لا يكون.. تلك طبيعة البشر.. لا شيء يعجبهم ، كانت جدتي تقول.. لا شيء يملأ عين الإنسان غير التراب..
- ومن ذا الذي يرضى ؟!..
- الحمد لله.. أنا راضٍ.. صحتي عال العال أكدر طوال النهار.. وأركن إلى أم العيال آخر يومي ، تهش لي حين تراني حاملاً ما تيسر من الفاكهة أو الخضار.. والتي غالباً ما يتصدق عليّ بها أصحاب المحلات آخر النهار ،

ومن رضي بقليله عاش .

حدّق زيد بالرجل ، فيما راح هذا يشرح وجهة نظره .

إنها حكمة الفقراء ، وفلسفتهم ، لو لم يفعلوا ذلك ماتوا كمداً وحسرة ،
إنهم يكذبون على أنفسهم ، وغالباً ما يتحاشون الكذب على الآخرين ،
إنه عالم البسطاء ، لا شيء يشغلهم سوى أكل عيشهم ، يجهدون في إقناع
أنفسهم بالرضا والسعادة ، فإن لم ينجحوا في ذلك انحرفوا ، وإلا فإنهم
سعداء حقاً ، وقانونهم بما لديهم..

لولا استدراك الرجل ، ما فكر بالرحيل ومغادرة مقعده .. لكنه قفز حين
استأذنه الرجل بالانصراف ، وقد أدرك أن الوقت قد حان للذهاب إلى
موعده مع الحافلة التي ستقله مع آخرين إلى العريش..

ودّع الرجل وانطلق عائداً إلى فندق شبرد ، كانت عقارب الساعة في
يده ، تقترب من الخامسة فجراً ، بدا عليه الارتباك ، وقد أدرك أنّ عليه
الإسراع حتى يلحق بالحافلة ، وإلا ضاعت منه فرصة العمر .

نظر إلى ساعته ثانية ، أسرع الخطو حين أدرك أن الوقت يكاد ينقضي ،
بدا عليه القلق ، فيما راحت عيناه تحديق في البعيد ، لعله يرى الحافلة
فيطمئن قلبه.. مرت دقائق طويلة ، قبل أن تقع عيناه على جمهرة من
الناس ، حتى أنّه بالكاد رأى طرف الحافلة العلوي .

هدأ قليلاً ، وراح يغذ الخطى نحوها.. لحظات اقترب من المكان.. اطمأن
حين أدرك أنّ الآخرين لم يكونوا أسرع منه، ولم يكونوا أكثر التزاماً بالموعد
، كان يكره كل من يتأخر عن مواعده.. لكنه في هذه المرة ، شكر لهم
عدم التزامهم ، وأثنى على تأخرهم.. اقترب من الحافلة.. وراح يبحث في

وجوه الركاب علّه يتعرّف إلى بعضهم.. وجوه لم يرها من قبل.. كاد يمضي في سبيله وقد ظن بأنه أخطأ الحافلة.. لكنه سمع صوتاً يناديه.. التفت إلى مصدر الصوت.. وما أن وقعت عيناه على صاحبه ، حتى صاح به..

- رمزي !! متى وصلت ؟!
- وصلت الليلة من تونس ، وأنت ؟!
- وأنا أيضاً.. وصلت الليلة من بغداد ، عبر الأردن.. في رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر..
- لا بأس يا عزيزي.. المهم أنك وصلت.. رغم أن الأمر لا يبشر بالخير..
- ما زال أمامنا الكثير من المعاناة حتى نصل إلى غزة..
- يبدو ذلك واضحاً..

ابتعدا عن الحافلة ، وراحا يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتبادلان الأخبار.. فيما راح أحدهم ينادي عبر مكبر الصوت ، أسماء الركاب.. الذين بدأوا يتدافعون للعودة إلى الحافلة .. كان الرجل يتوقف قليلاً بعد كل نداء ، وإذا ما تأكد من صعود الراكب إلى الحافلة.. واصل نداءه ليبدأ التدافع من جديد ، إلى أن يصعد أحدهم إلى الحافلة.. فيما تشرئب أعناق الجميع ، محدّقين بالمنادي ، وتتعالى أصواتهم تطالب بالتزام الصمت حتى يتسنى لهم سماع الأسماء ، علّه ينادي أحدهم .. بدأ صبر زيد ينفذ ، وقد امتلأت الحافلة بالركاب ، إلا القليل ، استدار نحو رمزي ، وقد بدا عليه التعب.. وقبل أن يجمع شتات كلماته.. استوقفه صوت ينادي اسمه.. مرّت لحظات قبل أن يستوعب أنه اسمه.. وأنهم

ينادونه.. انطلق عبر الجمع المحتشد عند باب الحافلة.. شاقاً طريقه بصعوبة.. صعد إلى الحافلة.. وانطلق نحو المقاعد الخلفية القليلة ، ألقى بجسده على أول مقعد خالٍ ، اقترب من النافذة وراح يبحث عن رمزي وسط الزحام.. اطمأن حين رآه يُسرِع نحو باب الحافلة.. جلس بانتظار وصوله.. وقد بدأ يستعيد هدوءه ، أسند رأسه بباطن يده.. مطلقاً العنان لعينيه.. تحدّقان في البعيد ، وتغرقان في بحر من الصور المتشابكة ، اللامتناهية.. حاول أن يضبط حدودها ، لكنها كانت تنزلق عبر حدقاته المنهكة ، يغمض عينيه محاولاً الابتعاد عن ارتباك نظره..

قطع تحرك الحافلة حبل أفكاره.. وأعادته إلى حيث يجلس في المقعد الأخير.. بدأ السائق يتقدم بحافلته ببطء.. قبل أن ينساب في مساره عبر الشارع المزدهم بالمارة والسيارات.. فيما غرق الجميع في الدهشة وانتظار اللحظة القادمة..

كانت الحافلة تنطلق عبر شوارع القاهرة.. فيما عاد زيد إلى حاله.. ينظر عبر النافذة.. يحدق في البعيد ولا يرى شيئاً من تفاصيل ما يقع نظره عليه ، شوارع لا تزال ضيقة ، تزدهم أرصفتها بالمارة ، فتضيق بهم ، ينطلق بعضهم عبر الشوارع ، في فوضى تزيد من زحمة السير ، فجأة توقفت الحافلة ، اشرأبت الأعناق تستطلع الأمر ، لحظات ، عاد إلى شروده ، وقد اطمأن إلى أن الأمر لا يعدو ازدحام الشوارع بالسيارات والمارة ، عاد زيد إلى حاله ، يحدق في الشارع المزدهم بالناس.. ترتسم على وجوههم علامات لم يلتفت إليها من قبل ، ولم يلحظها ، كانت وجوههم متجهمة ، عيونهم شاخصة ، ونظراتهم شاردة ، يهرولون كأها يهربون من شيء ما.. الناس في الزحمة يشبهون موج البحر.. موجة تسرع ، كأنها تهرب من موجة أخرى تهوّل مسرعة خلفها ، ثم لا

تلبث أن تتوحد معها ، تصل إلى الشاطئ وقد أعيأها السفر ، تضعف فتستلقي على الشاطئ ، أو تضرب نفسها بصخور تتشبث ببعضها ، تنكسر ، ترتد وتتناثر في المكان ، ليلتلعها رمل الشاطئ ، تذوب في مياه البحر من جديد ، فيما تتناثر الصخور ، وقد انغرست أطرافها في الرمل ، تحاول الفكاك من قبضته ، لكنه يطبق عليها ، ويمنعها من الانسياب نحو البحر.. الناس مثل موج البحر.. بعضهم كالصخر ، يدور حول ذاته ، ويرواح في ذات المكان ، يدغدغه الرمل حين يعجز عن ابتلاعه وتنزلق حبات الرمل ، فتتشكل على طول الشاطئ نتوء تبدو من بعيد كأنها مخابئ القنفذ في مطلع الربيع..

أفاق من شروده على اتساع الشارع وانسياب الحافلة ، وقد اختفى المارة أو كادوا ، حتى أنَّ أشكالهم تغيرت ، فتبدلت ملابسهم ، فيما اختفت البنايات العالية أو تقلصت طبقاتها ، وتناثرت في مساحات خضراء راحت تتسع شيئاً فشيئاً ، وقد بدأت تنتصب على حافة الطريق إشارات المرور ، وإعلانات تجارية ، استوقفته يافطة تشير إلى اتجاه الطريق نحو الإسماعيلية ، فيما بدت من بعيد ، جموع الفلاحين منكبين على الأرض يعزقونها ، وقد لفوا جلاليتهم على خصراتهم ، تمهل السائق ، حين فاجأه حمار هائم وسط الطريق السريع ، يتبعه ثور هائج ، فيما وقف فلاح يلوح لهما بعضاً من بعيد ، توقفت الحافلة تماماً ، خلف طابور من السيارات ، وكأنها المشهد راق للثور والحمار ، فتسمّرا وسط الطريق ، ما دفع أحدهم إلى مخاطبة الفلاح لأخذهما بعيداً عن الطريق ، لحظات ، تعطلت حركة السير ، وعلا صياح سائقي السيارات ، كأنها أدركا عاقبة فعلتهما ، تقدما ببطء شديد نحو طرف الشارع ، فيما انطلقت السيارات وسط هرج ومرج الركاب ، وتدافع عدد من الفلاحين من الحقول القريبة لتقديم العون ، أو حباً في الاستطلاع والتفرج على

ركاب الحافلات المتوقفة ، يعرف زيد هذه النظرات ويقرأها جيداً ، إنها مزيج من الحسرة ، والإحساس بالغبن ، بل إن بعضها يرقى إلى الحقد والكراهية ، إنه السفر ، الذي يحلم به كل واحد منهم ، إلى أين ؟! لا يهم ، المهم أن يغادروا هذا المكان ، يحبون وطنهم ، لكنها لقمة العيش ، التي تستعصي عليهم ، وبالكاد يحصلون عليها ، لم أر أحداً يحب أرضه مثل هؤلاء ، يحبون السفر والترحال ، لكنهم يتعلقون بأرضهم ، فيعودون إليها.. وقد غيروا جلايلهم ، وتبدلت مظاهرهم .

- لكنهم أول من يهب للدفاع عن الوطن ، إذا ما تعرض للخطر.. انتصب أمامه طيف صديقه سالم ، الذي انقطعت أخباره منذ سنوات ، منذ أبعدوه عن فلسطين إلى لبنان ، قبل اثنتي عشرة سنة ، خمسة عشر عاماً في السجن ، لم تبدله العذابات التي عاشها ، ولم تفت من عزمته..

- أه يا سالم ، كم اشتقت إليك ، أوغلت في السفر والرحيل ، وكدت أضيع في مدن الشتات والغربة ، لكنك لم تغب عن بالي ، وطيفك ما فارقني.. ربما كان زادي في سفري القصري الطويل ، سالم ، يا صديقي العزيز ، ها أنا عائد إليك ولا بد أن ألتقيك ، فانتظري.. أنت معلمي ، الذي علمني محبة الوطن ، أنت من وقف إلى جانبي ، وجعلني أنهض من جديد ، تعلمت منك الكثير ، وعلى يديك أحببت الحياة وأقبلت عليها بشغف كبير وتعلقت بأسبابها ، سألت عنك ، أقسم أنني حاولت الاتصال بك ، لكنني لم أعثر على أحد يدلني على عنوانك ، أو يطمئني عليك ، أنا قادم يا سالم ، فلا تغضب عليّ ، أعرف أنك ما زلت هناك ، لم تبرح مكانك ، ما زال صوتك يرنّ في أذني.. نحن الفقراء ، أشد تعلقاً بوطنا ، كنت تغضب مني حين أقول لك.. وطنك حيث تجد سعادتك.. يومها سألتني وما هي سعادتك؟! قلت لك .. راحة البال يا سالم.. راحة البال..

، لم يصدّق يومها ما سمعه من أصدقائه..

أذهله المشهد ، فأطلق العنان لعينيه تُقلّب تفاصيل المدى الأخضر ، الممتد حتى الأفق ، في انسجام لم يشهده من قبل ، صرّ عينيه ، حين وقع نظره على مجموعة من الفلاحين ، بجلاليهم المعهودة ، وسراويلهم الطويلة ، بعضهم يحمل في يده قفطاناً وآخرون معازق ومجارف في طريقهم إلى مزارع ليست لهم ، وربما كانت لهم ذات يوم ، تذكر صديقه سالم مرة أخرى..

سالم الذي أنقذه يوم تسلل من الكرامة إلى العوجا ، وكاد يقع في قبضة الدورية الإسرائيلية ، لولا تحذيره ودعوته له بالدخول والاختباء في مزرعة الموز التي كانت لوالده ذات يوم ، وأهداها لمأمور الطابو في القدس ، حيث استأجرها منه على سبيل المزارعة ، كان يعتقد أنه بذلك يتقرب منه...فلاح بسيط ، ورث بعض المزارع والأراضي عن والده ، مثل كثير من الفلاحين ، لم يقدم له شيئاً ، لكنه كان قانعاً باستقباله له في بيته الكبير في القدس ، وقد أوهمه ب صداقته له فكان يحمل له الفواكه والخضار ، واللبن والجبن والعسل ويفاخر بذلك.. ويعود في كل مرة ليقضي الساعات يتحدث في مجالسه عن زيارته لصديقه ابن العائلة المقدسية الكبيرة ، حين سأله ذات مساء ..

- وماذا قدّم لك صديقك المقدسي ؟

أجابني غاضباً..

- استقبلني في بيته..

وأضاف..

كان سالم يقف أمامه ، وقد استحضره ، بشحمه ولحمه ، رآه يخفي عينيه ، ويعتصرهما ألماً وحسرة على الأرض التي ضاعت ، وحرناً على والده ، أخذ نفساً عميقاً ، تنهَّد وهو يقلب يديه..ترحَّم على والده ، مسح عينيه بباطن يديه ، نظر إلى زيد ، واختفى..

أفاق زيد من شروده ، فيما كانت الحافلة تشق طريقها نحو الإسماعيلية.. جال ببصره يتفقد الركاب ، الذين غط معظمهم في النوم ، فيما راح البعض الآخر يطلق العنان لشروده عبر نوافذ الحافلة ، لكن الصمت المطبق ، كان قاسمهم المشترك ، خيَّل إليه أن لا أحد نائم ، حتى أولئك الذين أغمضوا عيونهم ، فالقلق والارتباك كان يرتسم على وجوههم ، بل إن عضلات وجوههم ، كانت تبدي بعض إشارات تنم على استغراقهم في التفكير وانشغال الفكر .

بطء الحافلة ، كان مؤشراً على دخول المدينة ، أطلق العنان لعينيه تتفقدان ما تيسر له رؤيته ، كأنها يبحث عن شيء ما.. فقد اختفت شواهد الدمار الذي لحق بالمدينة سنوات حرب الاستنزاف يوم كان الإسرائيليون يحتلون الضفة الأخرى من القناة ، يومها ، تحولت المدينة إلى جبهة قتال ، ما أدى إلى رحيل أهلها ، ولم يبق فيها غير الفدائيين والمقاتلين.. فتحولت بقايا بيوتها إلى ثكنات عسكرية ، طوال ست سنوات ، يوم كان الإسرائيليون على بعد أمتار من المدينة ، يمتطرونها ليل نهار ، بمختلف الصواريخ وأسباب الدمار ، فلم يبق في المدينة حجر على آخر.. يومها ، حدثني بعض أهلها ، بالعديد من القصص التي عاشتها مدن القناة ، ما يشبه أيام حرب السويس ، بل وأشد قساوة ،.. أطلق العنان لخياله ، يشكل صورة لما كان يجري ، صورة مرّت عليها عشرون سنة ، تكفي لإعادة تشكيلها من جديد ، ومحو ما خلّفته ، رغم الجرح الذي

لم يندمل ، وما زال ينزف من أطرافه التي لا تزال مفتوحة على ذاكرة عارية ، لم تجد من يحمي عُرْيَهَا ، رغم تشبثنا بخيوط ذاكرة متعبة ، وكأن القصف طالها أيضاً فتهتكت ، وأصابها من الخراب ما يشبه شبك الصيادين ، على شاطئ مهجور ، هاجمه القرش ، فهجره الصيادون ، وهربت الأسماك إلى شاطئ آخر ، أكثر أمناً وأماناً .

توقفت الحافلة ، ترجل سائقها ، وقبل أن يغادرها ، التفت إلى الركاب ، وطلب منهم عدم مغادرة الحافلة ، إذ عليه إجراء بعض المعاملات قبل السماح للحافلة بعبور القناة إلى سيناء ، فيما كان أحد الركاب يشير بيده إلى الضفة الأخرى .

- من هنا عبروا ، وذاك خط بارليف..

راح يروي لصاحبه قصة العبور ، وتحرير الضفة الأخرى للقناة.. لا يزال يذكر ما حدث ، كانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر ، حين سمع الخبر ، اعتقد للوهلة الأولى ، أنَّ الأمر ليس إلا تمثيلية أو مسلسلاً إذاعياً ، وظل كذلك حتى سمع المارشات العسكرية ، والأغاني الوطنية ، عاد إلى البيت غير مصدق ما يسمع ، فيما ساد الهرج والمرج شوارع رام الله ، وراح بعض جنود الاحتلال يطلقون النار ويطلبون من الناس مغادرة الشوارع ، معلنين عبر مكبرات الصوت حظر التجوال ، لحظات ، بدت الشوارع خالية ، والمحلات التجارية مغلقة ، فيما راحت دوريات حرس الحدود تجوب الشوارع ، مطلقة بعض زخات من الرصاص ، بين الحين والآخر ، في تلك الليلة ، لم يسلم أحد من الاعتقال ، أخذوا أعداداً كبيرة من الشبان ، اقتادوهم إلى المقاطعة ، لم يتسع السجن فأقاموا معسكراً في الساحة ، وقد اكتظت الخيام ولم تعد تكفي ، كان زيد واحداً من نزلاء تلك الخيام ، يحاول جاهداً التشبث بالبقعة التي وصل إليها ،

وسط تدافع السجناء وتراجعهم أمام عصي الجنود وتهديدهم باستعمال السلاح إن لم يتراجعوا ، فجأة انطلقت رصاصة ، تدافع الشباب ، سقط بعضهم ، فيما تعثر آخرون بمن سقطوا ، نهضوا ، وتدافعوا نحو الخيمة ، لكن أحدهم ظل يتخبط بدمه ، حاول البعض الوصول إليه لكن الجنود على منصات الحراسة المحيطة بالخيام ، حالوا برصاصهم دون ذلك..

توقفت الحافلة ، صعد أحد الجنود طالباً من الركاب تحضير أوراقهم وجوازات سفرهم.. أفاق من شروده وقد اعتقد للوهلة الأولى أنه ما زال في سجن رام الله ، لكنه سرعان ما أدرك أنه في سيناء ، وأن الحاجز للجيش المصري قبل الوصول إلى العريش .

obeikandi.com

2

بدا المشهد مختلفاً ، فالأرض المستصلحة على جانبي الطريق ، تبعث على الإحساس بالدفع ، وكأن المصريين أعادوا اكتشاف سيناء ، لعلهم أدركوا أن لديهم أرضاً صحراء ، يمكن أن يعاد تشكيلها ، ورسم معالم جديدة لها ، وها هم يعودون إليها ، نعم يعودون إليها ، فالأرض لا تعود ، وإنما البشر هم الذين يعودون.. الأرض باقية لا ترحل.. الناس هم الذين يرحلون.. ازدحم الشاطئ بالشاليهات ، تحيط بها غابات النخيل ، وتخرج من الحداثق باتجاه البحر ، تنغرس هناك ، فتلامس نهايات الموج ، وزبد البحر المتعب ، المتهالك للوصول إلى أقدام النخيل المنتصبة على طول الشاطئ.. مدينة العريش ، قرية كبيرة.. يزدحم شاطئها والشارع المحاذي له بالمصطافين ، القادمين من مدن الصعيد ، والأرياف البعيدة عن البحر ، الذين اكتشفوا المدينة ، وسحر شواطئها ، ما دفع الكثيرين إلى الاستثمار في مجال السياحة والاصطياف..

كانت الحافلة تشق طريقها دوّماً عائق.. الشمس تتوسط السماء ، فتسقط أشعتها عمودياً ، لتدفع المارة إلى البحث عن ظل يقيهم حرارتها ، لكن معظمهم آثر البقاء حيث يقيم .

امتدت رفح وتمددت لتجتاز الحدود بين فلسطين ومصر فتشكلت مدينتان متلاصقتان،

الباب مقفلاً ، وقد علا صوت مساعده ، يطلب من الجميع ، البقاء في أماكنهم ، وعدم مغادرة الحافلة.. كان مئات الرجال والنساء والأطفال هائمين على وجوههم.. وقد بدا التعب والإرهاق عليهم.. مشهد أعاده إلى أيام توزيع المؤن في مخيم عقبة جبر قرب أريحا.. أواخر كل شهر.. حيث كان الطحين يختلط بالمرجرين ، وغبار العدس والأرز، فيما تتعالى أصوات العجائز ، تنادي على مشترٍ لعلب اللحمه والسردين ، وحمال يبحث عن رزقه ، ويفاوض عجوزاً لحمل ما تيسر لها من صدقات هيئة الإغاثة الدولية ، وآخر يحاور كهلاً على بطاقة الإعاشة التي لم يستطع صرفها من أمين المستودع ، ذات المشهد.. يتكرر هنا بأشكال مختلفة ، الكل يزحف نحو المعبر.. علّه يستطيع الدخول عبر البوابة المغلقة ، أمهات يحملن أطفالهن ، هذه تحاول طرد الذباب عن وجه طفلها ، وتلك تحاول إلهاءه بشيء يشبه لعبة الأطفال ، وأخرى ضاقت ذرعاً بصغيرها الذي تهدده ، عله يكف عن البكاء ، تتمتم بكلمات وجمل غير مترابطة ، كأنها تريد أن تشكو طفلها ، لأنها تعتقد بأن بكاءه غير مبرر ، حدّق زيد بعيني الطفل وقد علا صراخه ، حدّق في عينيه مرة أخرى ، ابتسم حين لاحظ أن الطفل يبكي ويصرخ ، من غير دموع ، اعتقد للوهلة الأولى أن أمه تفهمه ، وتدرك أن لا مبرر لبكائه.. لكن الطفل عاد يصرخ بأعلى صوته.. وقد ابتعد بنظره عن زيد وعن أمه.. وراح يقلب نظره ، تارة في الناس من حوله ، وتارة أخرى في الجنود المدججين بالسلاح أمامه يشهرونه في وجوه المتدافعين أمام البوابة.. ويتضاخكون بشكل هستيري مريض ، كأنما يتلذذون بعذابات الناس ، وذللهم.. حدّق في جنود الاحتلال.. لم يتغيروا منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً.. يوم رأهم أول مرة في ساحة أريحا.. وربما كانوا هم أنفسهم الذين رأهم هناك.. مثل رعاة البقر.. أو هكذا يتعاملون معنا.. قال محدثاً نفسه.. قبل أن يستقر نظره على الطفل ذاته.. لكنه وقد تعب من البكاء.. أو ربما التظاهر بالبكاء.. ألقى برأسه على صدر أمه.. كأنما أراد أن يبتعد عن

شجرة الجَمِيزِ التي تتوسط ساحة المسجد ، جال ببصره أرجاء الساحة المكتظة بالناس تقدم نحو الجدار ، وقد وقع نظره على مكان بالكاد يتسع له ، ألقى بجسده المنهك على الأرض ، أحسَّ برغبة في إغفاءٍ لم يقوَ على مقاومتها ، فيما أسند رأسه إلى الجدار ، وأغمض عينيه المثقلتين بالنعاس ، لكن المشهد لا يفارقه ، سحب جسده ، فيما راح يدفع حقيقته الصغيرة يسند بها رأسه المتعب ، ضمَّ يديه إلى صدره واستلقى على جانبه محاولاً استعادة صفاء ذاكرته المبعثرة ، كأنها بقايا أوراق تختلط حروفها ، فلا يعود يفهم شيئاً منها ، أطبق عينيه وقد غلبه النعاس ، لا تزال أسراب النحل تطنُّ في أذنيه ، وتضغط على دماغه.. لكن ابنه سالم الصغير ، لفَّ ذراعه على رقبتِه ، ضمه إلى صدره ، وهو يسأله عن أمِّه رباب .

سالم الصغير لم يعد صغيراً يا زيد ، ابنك أصبح شاباً ، يدرس في جامعة بيرزيت ، أعرف أنك لم تره منذ خمس سنوات ، والصورة التي تحملها له في محفظتك ، تعود للأيام الأولى من الانتفاضة ، ابنك يا زيد أصبح رجلاً ، وهو يشبهك كثيراً ، حتى في طباعه ، كبر سالم قبل أوانه ، وقد كان رجل البيت أثناء غيابك يا زيد... أما شقيقتك ميسون فلم تنقطع زياراتها لنا بعد أن تزوجت ورحلت مع زوجها إلى الخليل حيث تقيم معه هناك .

- آه يا زيد.. خمس سنوات لم أرك فيها ، منعوني وسالم من مغادرة الضفة الغربية ، أتذكر ، كان الهاتف وسيلتنا الوحيدة للتواصل ، ولم يكن يشفي غليلنا ، إذ لم نكن نتحدث طويلاً.. وليس لدينا ما يغطي تكاليف المكالمات الدولية.. فالدَّكان بالكاد يكفي لعائلة أخيك زياد ، رغم أنه لم ييخل علينا بشيء وكان سخيًّا معنا..

أفاق على أصوات وجلبة.. نهض مذعوراً.. لكنه ما لبث أن استعاد هدوءه بعد أن سمع المؤذن ينادي لصلاة الفجر ، فيما تسابق العديد من الناس إلى المتوضأ ، استعداداً للصلاة..

همّ بالنهوض ، لكن بعض جسده لم يساعده على ذلك ، فتمطى قليلاً ، محاولاً لمّ جسده المتصدّع ، وعظامه التي أحس بها وقد انتقلت من مكانها.. تحامل على نفسه ، ووقف محاولاً إعادتها إلى حيث كانت ، حاول التقدم نحو المتوضأ ، لكنه تراجع حين وقع نظره على ازدحام المكان بالراغبين في التوضأ أو غسل وجوههم ، بحث عن طريق يسلكها للابتعاد عن الازدحام ، تسلل بصعوبة ، وقد عرف غايته ، حمد الله وهو يتحسس حقيبته الصغيرة ويتأكد من سلامتها ، رغم أنه يدرك أن لا شيء فيها يستحق الخوف عليها من السرقة ، ولا حتى من العبث في محتوياتها ، إذ انها لم تكن تحوي غير ما يكفيه من ملابس خفيفة تكفيه لأسبوع ليس أكثر.. فهو على عادته ، يكره حقائب السفر ، كان يقول لزوجته رباب..

- أنا لست ذاهباً إلى صحراء.. سأشتري ما أحتاج إليه حيثما حللت .

تنفس الصعداء حين أدرك أنه أصبح خارج ساحة المسجد ، وقف يتلمّس طريقه ، تقدم من صبيّ يجر عربة صغيرة ، يحمل فيها بعض زجاجات الماء ، وأنواع مختلفة من المشروبات الخفيفة ، مدّ يده إلى زجاجة ماء ، نقد الصبي ما تيسر ، فتح الزجاجة ، شرب ما استطاع منها ، وغسل وجهه بما تبقى.. كاد يواصل سيره.. لكنه وقد أحسّ برغبة شديدة في فنان قهوة ، وإذا كان ذلك صعباً ، فلا بأس بالشاي..

عاد إلى الصبي وسأله إن كان ذلك ممكناً.. هش للصبي وهو يشير بيده إلى مكان قريب يمكنه أن يجد فيه ما يسعى إليه.. شكره وهو يسرع نحو المكان عله يجد ضالته..

العرينة ، المقهى ، على بعد دقائق من عربة الصبي ، اقترب زيد من جمهرة من الناس ، بعضهم كان محظوظاً فوجد كرسيّاً من القش ، مثل

تلك التي لا يزال يذكرها ، تمتد على الرصيف المحاذي لمستنبت أريحا ، على الطريق إلى مدرسة هشام بن عبد الملك ، ومدرسة بنات أريحا ، حيث كان وأصدقائه يتسابقون لاحتلالها قبيل موعد مرور صديقاتهم طالبات مدرسة البنات ، وبعضهم لم يجد ما يجلس عليه ، اقترب الأرض حين أدرك بأن ذلك هو المقهى الذي ينشده ، حيث كان الجميع يحملون بأيديهم كاسات بلاستيكية ، أشار بيده لصبي يدور بين الناس ، يحمل بيده وعاء لحمل فناجين الشاي والقهوة ، واصل الصبي دورانه دون أن يسأله عن طلبه..

- واحد شاي..

نادى بها ، وكأنها مطلع أغنية طويلة..

تذكر النداء ذاته ، في معظم المقاهي التي تردد عليها في أريحا ، ورام الله والقدس.. ، إنها ثقافة المقاهي الشعبية وطقوسها ، تتشابه معاملها وكذلك سلوك العاملين فيها..

لحظات ، حضر الصبي ذاته ، وراح يوزع الشاي على طالبه..

- أريد فنجان قهوة .

- سيكلفك ذلك ضعف ثمن الشاي .

- سأدفع لك ما تطلبه.. أدفع ثلاثة أضعاف .

تحسس جيبه ، نقد الصبي خمسة جنيهاً .

- تلكا الصبي وهو يتظاهر بالبحث عن فكة يعيدها لزيد..

- لا أريد شيئاً.. احتفظ بالباقي فهو لك شرط أن تسرع في إحضار القهوة..

دَسَّ الصبي الجنيهاً في جيبه وانطلق نحو العريشة.. لحظات.. عاد حاملاً فنجان القهوة.. راح زيد يرشفه بشغف شديد.. كاد يبصقه ، لكنه أدرك أن عليه تعوّد ذلك ، إذ ربما كان بانتظار ما هو أسوأ من ذلك.. مدّ يده إلى جيبه ، أخرج محارم الجيب التي كان اشتراها من الصبي على كورنيش النيل ليل البارحة ، جمع حثالة القهوة في فمه وألقى بها في المحرمة ، تفقد المكان قبل أن يغادره محاولاً الاقتراب من المعبر ، واستشرف أحواله.. آلاف المنتظرين قرب بوابة العبور ، وأعداد كبيرة لا تزال تتدفق دون جدوى ، فالمعبر لا يزال مغلقاً أمام العابرين.. وجنود الاحتلال ما زالوا يلوّحون بأسلحتهم في وجوه المتدافعين.. ويسمع بين الحين والآخر.. طلقات طائشة ، لكن أحداً لا يهتم.. توقف زيد ، حين أدرك استحالة تقدمه وسط الفوضى العارمة ، التي تعم المكان ، وقف زيد مذهولاً ، وقد أصابه إحباط شديد ، وشعور باليأس والعجز عن فعل شيء ، أي شيء يحمله عبر هذه البوابة المغلقة ، ويلقي به بعيداً خلف هذا الحاجز الحقيق الذي يحول بينه وبين الدخول إلى فلسطين.. حدّق في الناس يحيطون به من كل جانب.. وحالهم لا تقل بؤساً عن حاله.. لا شك في أن أحلامهم تتقاطع هنا ، وتمنياتهم ليس أكثر من عبور هذه البوابة إلى الوطن..

حَدَّق في الجموع المتدافعة أمام البوابة ، أَحَسَّ بمرارة شديدة ، وانتصبت أمامه طوابير الإذلال أمام حواجز الاحتلال ، قبل أن يبعده إلى لبنان.. هز رأسه.. وهو يحدث نفسه..

آهٍ على وطن نعبّر إليه مثلما يعبر الآخرون إلى أوطانهم.. آه أيها الوطن المحاصر.. لماذا جعلتنا نحبك! لهذا الحد ، ونقبل بكل هذا الذل والعذاب من أجل أن نعبّر إليك؟! ، أما كان بالإمكان أن نختار وطناً آخر.. أقل جمالاً لكنه أكثر أمناً وسلاماً؟! وطناً ليس فيه معابر ، والطريق إليه سالك وإن بصعوبة.. لم يسألك أحد ، أعرف ذلك.. لكنك تشبثت بحلمك ، قابضاً على

جمره.. لم يأتِ إليك ، لكنك سعت إليه ، وكنت ستعطيهِ حياتك من أجل أن تبقى فيه ، بل كم مرة كدت أن تموت ، وأنت تحاول التسلل إليه.. أي وطن هذا وأي حب؟!..

قرر الابتعاد عن المكان ، وقد أدرك أن لا فائدة من الوقوف أمام البوابة.. انتهز فرصة تراجع المتدافعين عند سماع زخّات من الرصاص أطلقها جنود الاحتلال ، فيما وقف عدد من الجنود المصريين محاولين إقناع الجمهور بالابتعاد عن البوابة.. انسَلَّ زيد خارج الحشد المطبق عليه من كل جانب.. تنفس الصعداء حين وجد نفسه بعيداً.. وراح يبحث عن مكان يستظل به.. وقد بدأت الشمس ترتفع وسط السماء..

كان عليه أن يبحث عن مكان جديد ، إذ إن مكانه في المسجد ، ربما سبقه إليه أحدهم حال مغادرته له..

هام على وجهه لا يدري وجهته ، وكل ما كان يسعى إليه ، الابتعاد عن المكان ، والاختلاء بنفسه ، لعله يجد ما يُبعد عنه هذا المشهد..

فكر بالعودة إلى القاهرة ، ونسيان أمر العبور إلى غزة.. أو ربما العودة في وقت لاحق.. واصل ابتعاده عن المكان ، لولا صوت ناداه باسمه.. التفت إلى المنادي.. كان رمزي يشير إليه بالتوقف ، هرول نحوه ، كطفل وجد ضالته..

- أين أنت يا رجل؟!

- أين أنا؟! أين أنت ، كلانا ضاع في الزحمة ، لم يكن من السهل أن يلتقي أحدهما الآخر وسط هذا الزحام..

- يبدو أن عبورنا لن يكون سهلاً..

- بلغني أن علينا الانتظار ، ربما أسبوعاً قبل أن يسمحو

ضحك الاثنان وواصل سيرهما باتجاه النزل .

غير بعيد عن مقهى العريشة ، وسط رمال تمتد جنوباً ، وغرف متلاصقة ، بدت من بعيد كأنها مدرسة ، اقتربا من البيت ، دخلا فناءه عبر بوابة من ألواح خشبية ثبتت بصفائح قديمة من زينكو وتنك يكاد يأكله الصدأ ، ولعل ذلك ما يفسر بقاءها مشرعة خوف تهالكها وانهيائها إذا ما كثر استعمالها ، التفت بعض النزلاء حول شجرة دوم كبيرة ، يكاد ظلها يغطي ساحة البيت ، طرحا السلام وواصل رمزي طريقه يتبعه زيد ، نحو زاوية البيت ، الذي بدا كأنه غرفة الإدارة ، أو حارس النزل ، بعد محادثة قصيرة ، أخرج زيد من جيبه خمسين جنيهاً ، نقدها للرجل.. الذي أشار بيده إلى الغرفة لكن رمزي طلب إليه أن يكون زيد معه في ذات الغرفة ، التفت الرجل إلى رمزي ، وقد همّ بالتعليق ، لكنه تراجع عن ذلك ، ملتفتاً إلى زيد..

- لا تترك شيئاً ثميناً في الغرفة ، نحن غير مسؤولين عن ضياع أو سرقة أي شيء..

ابتسم زيد ، نظر إلى الرجل ، كأنما يبوح له بسر .

- ليس لديّ ما يستحق السرقة..

- ما علينا إلا البلاغ..

- شكراً لك.. سلام عليكم .

حمل حقيبته بيده.. وتوجه مع رمزي إلى الغرفة.. لحظات.. وقف ببابها ، جال ببصره أنحاءها.. حملته المشهد إلى معسكر الفدائيين في الدامور جنوب بيروت.. لا تزال الغرفة تحتفظ ببقية من طلائها أول مرة ، وربما الأخيرة..

واصل رمزي حديثه مع أبو العبد ، دقائق سلّم عليه ،
تبعه زيد وواصل سيرهما..

- لا حاجة بنا للذهاب إلى الارتباط المصري ، فقد أخبرني
أبو العبد للتو ، بأن دورنا للعبور إلى غزة ، يحين بعد
ثلاثة أيام ، هناك ضغط شديد ، والإسرائيليون كعادتهم
يضيّقون على الناس.. قال رمزي وهو يطوي ورقة في
جيبه..

- وهل لهذه الورقة علاقة بالأمر؟!

- نعم.. إنها تصريح العودة.. سوف يأتي أبو العبد بعد
ثلاثة أيام ، لاصطحابنا إلى المعبر .

- ثلاثة أيام؟!..

- على الأقل ، نحن نعرف الآن متى سيحين دورنا.. انتظرنا
سنوات ، لا بأس من الانتظار ثلاثة أيام أخرى.. لا ضير يا
صديقي.. فلنتنظر..

- وهل فملك غير ذلك؟!..

- تعال إذن نبحث عن شيء نفعله خلال هذه الأيام الثلاثة
.

- وماذا سنفعل في رفح؟!..

- اسمع.. قيل لي أن هناك بعض المقاهي المنتشرة على
الشاطئ.. تعال نبحث عن سيارة تقلنا إلى هناك.. علّ

بهما ودعاهما إلى الدخول مشيراً بيده إلى طاولة قريبة من نافذة كبيرة تطل على البحر.. بين سمك وشاي ونرجيلة.. أمضيا سحابة ذلك اليوم ، وقد أحسّا بحاجة إلى الاسترخاء.. حاول صاحب المطعم إقناعهما باستئجار شاليه يملكه على البحر.. حاول زيد إقناع رمزي بالأمر.. لكنه ما لبث أن تراجع حين تذكر موعدهما مع أبو العبد.. ما رأيك لو بحثنا عن أبو العبد ، وطلبنا إليه أن يأتينا بعد ثلاثة أيام هنا؟!.. سأل زيد رمزي..

- وأين سنجد أبا العبد؟!

- نسأل عنه في مكتب الارتباط.. لا عليك.. اترك الأمر لي..

- لماذا لا نبيت ليلتنا في النزل.. فقد دفعنا أجرة ليلتنا.. ثم نعود في الغد لنقضي ليلتين هنا؟!

توجه رمزي إلى الرجل وقد استحسن فكرة زيد.. دفع له خمسين جنيهاً عربوناً ، على أن يعودا في اليوم التالي.. نظر إلى زيد ، وخرج يتبعه زيد ، استقل سيارة أجرة كانت تنتظر مع غيرها زبائن المقاهي و المطاعم المنتشرة على الشاطئ ، وتوجها إلى النزل.. استراحا قليلاً.. وخرجا يبحثان عن أبي العبد.. توجهوا إلى مكتب الارتباط ، كان أبو العبد وبعض زملائه يدخلون النرجيلة ، نهض أبو العبد حال رؤيته رمزي ، حياهما ، فيما بدأ رمزي يشرح له تفاصيل عنوانهم الجديد ، راقى فكرة المقهى والشاليه لأبي العبد ، تدخل زيد قائلاً..

- زورونا تجدوا ما يسركم..

ضحك ثلاثتهم ، تصافحوا وغادر زيد ورمزي مكتب الارتباط على وعد من أبي العبد بزيارتهم ليلاً في المقهى.. فيما كان رمزي وزيد يهتمان بالخروج للبحث عن سيارة أجرة.. استدرك أبو العبد ، وطلب إليهما الانتظار قليلاً..

عاد برفقة رجل آخر.. تبين لهما بأنه سائق إحدى سيارات مكتب الارتباط.. حين طلب إليه أبو العبد أن يوصلهما إلى وجهتهما ، شكراه من جديد واستقلا السيارة إلى المقهى.. كانت العتمة تنتشر في المكان.. الشوارع لم تر الإسفلت منذ أن شقتها السيارات العسكرية والدبابات أيام كانت تلك المنطقة معبراً لها ، في طريقها إلى صحراء سيناء ، بعضها لا يزال منتشرًا في المكان ، معطلاً ، أو بقايا هياكل من حديد ثقيل ، لم يستطع لصوص الخردة فكّها وأخذها لبيعها ، كانت سيارة الجيب العسكرية الروسية الصنع ، تنطلق عبر الطرقات الترابية ، فيما تشبث زيد ورمزي بمقعديهما ، وقد اطمأنّا قليلاً حين سمعا السائق يبلغهما بأنهما سيعبران إلى الطريق المعبد بعد قليل.. تنفسا الصعداء ، عندما أحسا بالسيارة تتوقف عن التآرجح والاهتزاز ، وتنساب بسلاسةٍ افتقداها منذ انطلاق سيارة الجيب من مكتب الارتباط ، لحظات.. توقفت السيارة أمام المقهى.. ترجل زيد ورمزي ، شكرا السائق وتبعاً رجلاً هب لاستقبالهما ودعاهما مرحباً بهما ، فيما كان آخر يتقدم منهما مرحباً ، مشيراً بيده إلى الطاولة نفسها قرب النافذة .

- إنها محجوزة لكما..

اصطحبهما صاحب المقهى إلى الطاولة ، مواصلاً ترحيبه بهما على الطريقة المصرية.. جال زيد بصره أنحاء المقهى ورد على الرجل !

- يبدو أن المقهى كله محجوز لنا..

ضحك الجميع فيها راح صاحب المقهى يفسر غياب الزبائن في مثل هذا الوقت ، أسند زيد يده على حافة النافذة ، وأطلق العنان لناظريه ، تعانق البحر ، كأنها تبحث عن مركب يحمله إلى حيث لا يدري ، إلى وطن أمضى حياته بسعى إليه ، حتى قبل طرده منه..

- لزج هذا الوطن.. كلما اقتربت منه.. انزلت من بين يديك

- أنت لا ترى الأمور كما هي.. الوطن باقٍ هنا ، لم يهرب ، أنت الذي هربت..
- لكني لم أهرب.. أنت تعرف أنهم طردوني ولم أكن أملك البقاء ، لقد أبعدوني إلى لبنان.. وأنت تعرف أيضاً كم مرة حاولت التسلل والعودة إلى رام الله.. كم مرة كدت أموت ، بل إني رأيت الموت مرات ومرات.. كل ذلك من أجل أن أعود.. لكنه مازال يرفضني..
- وطنك لا يرفضك يا عزيزي... بل إن هناك من يحبه أكثر مني؟!.. لا ، لا.. لا أصدق أن أحداً يحبه أكثر مني..
- الحب يا عزيزي ليس كلاماً ، وقصائد تطرزها كل يوم في حب الوطن.. الحب ليس انتحارك ، وليس مظاهرات أمام عدسات المصورين.. حب الوطن يا عزيزي ، ليس خطاباً في حشد من الناس تخدعهم بمعسول الكلام وحلوه.. حب الوطن.. ثقافة وتربية لم نتعلمها بعد.. حب الوطن ليس شعارات وهتافات في الشوارع ، ليس موتاً مجانياً .
- ومن قال إنه موت مجاني.. نموت من أجل أن نحيا..
- نعم.. نموت جميعاً ويحيا الوطن !! وما حاجتنا للوطن ، بعد أن نموت جميعاً؟!..
- ماذا تريد أن تشرب ؟.. زيد.. ماذا تريد أن تشرب ؟..

أفاق زید من شروده علی صوت رمزی..

- أريد أن أشرب شيئاً يحملني إلى غزة.. ولا أصحو قبل أن أصل هناك .
- فهمت.. و لك ما تشتهي.. شرط أن تبقى معي ، ولا تهرب كعادتك..
- ليتني أستطيع الهرب..
- إلى أين ؟!
- لا أدري ، المهم أن أخرج من رفح..
- سنعبر إلى غزة.. هناك يا صديقي.. بعد يومين سنكون على بحر غزة.. وسنشبع من سمك أبو أحمد..
- حملته تمنيات رمزي و تطميناته إلى مطعم غزة ، تذكّر أبو أحمد.. طبّاخ السمك الذي لم تفارقه صورته.. بضخامته وكرشه المنتفخ أمامه.. ويده السحريتان..
- أتعلم يا رمزي.. لم أذق مثل سمك أبو أحمد هذا ، كنت في أفخم المطاعم في بيروت والقاهرة وحتى في أوروبا.. ولم أجد طعم السمك الذي كان يعدّه لنا أبو أحمد.. آه كم أشتهيه الآن..
- سنكون هناك بعد يومين.. لا عليك يا صديقي سنذهب إلى مطعم غزة ، وسنشبع سمكاً..
- ترى ماذا حلّ بصاحب المطعم ، صديقنا محمد آل

رضوان .

- سمعت من أحد الأصدقاء انه توفي منذ سنتين .
 - هل تعرف أنه كان شاعراً وأديباً ، كنا نجتمع في مطعمه ، شلة من الأدباء والمثقفين.. ناقش كتاباً جديداً ، أو نقرأ بعض ما كنا نكتبه في تلك الأيام..
 - كنا نلتقي في مكتبة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، مازلت أذكر ذلك..
 - كانت أياماً حالكة السواد ، لكنها غنية بالثقافة والفنون.. في تلك الأيام بدأنا نضع ثقافتنا ونشكّل هويتنا الوطنية.. هرّ رمزي رأسه مؤيداً.. فيما كان يطلب من النادل نرجيلتين وبعض المقبلات..
 -
- مضى الوقت ثقيلاً ، رغم أن زيداّ يعشق البحر ، ويحب التأمل في موجه ، والغوص في أعماقه ، وأبعاده المترامية ، كان يتسلل وحيداً إلى شاطئ يافا ، يجلس قريباً من العجمي ، ويطلق العنان لأحلامه ، يحتفظ بدفتر صغير في جيبه ، يدّون فيه خاطرة أو فكرة كانت تنمو وتكبر أحياناً ، فيكتب قصيدة ، أو نثر يبت فيه ما يعتلج بداخله من خوالج متكسرة ، أو حلم غير مكتمل ، يبحث في موج يلهث وراء موج ، يلتحم ببعضه ، ويستلقي على شاطئ يتعطش رمله لعناق البحر قبل أن يذوب فيه حاملاً معه ما تبقى من حلم حاول جاهداً أن يكمله.. لكن الموج كعادته.. كان أسرع في ابتلاع الحلم.. والحوّل دون اكتماله.. في تلك الليلة.. جاء إليهم أبو العبد.. تناول بعض المشاوي وشرب ما تيسر من الشراب وغادر المقهى بعد أن وعد

في الأثناء وقع نظر زيد على طبق مغطى قرب الباب ، مدَّ يده بحذر يستطلع الأمر ، ليدرك أنَّ أحدهم أحضر فطوراً لهما ووضعه أمام الباب ، سحب الطبق إليه ، ألقى بما فيه من قطع اللحم باتجاه الكلب ، الذي هجم على اللحم يلتهمه وقد هداً.. أشار زيد إلى العامل بالابتعاد عن المكان.. لحظات لم يتبقَّ شيء مما ألقاه زيد للكلب ، فيما وقف الكلب مسترخياً ، يطل برأسه نحو زيد ، كأنها يستجديه المزيد.. بينما وقف زيد يشير إليه بحركات تؤكد للكلب بأنه ألقى إليه بكل ما لديه.. انسحب الكلب بعيداً ، كأنها أدرك صدق زيد.. و بأنه قدَّم إليه فطوره ، ولم يبق لديه شيء ، لكنه لم يشبع.. فراح يبحث عن طعام في مكان آخر.. تنفس زيد ورمزي الصعداء.. واطمأن إلى رحيل الكلب وابتعاده.. فخرجا من الشاليه.. يبحثان عن نادل يحضر لهما قهوة وطعاماً.. استعداداً ليوم جديد..

لم يغادر زيد ورمزي الشاليه إلا في ساعة متأخرة ، تناولا العشاء في المطعم وعادا في ساعة متأخرة ليُمضيا ليلتهما الثانية انتظاراً ليلية الثالثة ، حيث موعدهما للعبور إلى غزة.. لم يكن لديهما الكثير ليفعلانه نهار اليوم الثالث سوى انتظار الساعات التي كانت تمر ببطء شديد وبثقل لم يعهدانه من قبل.. لكنَّ زيداً لم يحتمل خبر تأجيل عبورهما إلى موعد لم يحدد ، حين جاءهما أبو العبد مساء تلك الليلة ، وأخبرهما بذلك .

- الإسرائيليون يتذرعون باكتشاف نفق قاموا بتفجيره .

- وهل ضبطوا أحداً هناك ؟

- الأنفاق موجودة منذ انسحابهم من سيناء ، وتقسيم رفح إلى شطرين ، ولا يحتاج المتسللون عبر هذه الأنفاق لأكثر من حفر أمتار قليلة للتنقل بين شطري المدينة ، وتهريب كل ما يريدون من الأسلحة إلى المخدرات ، إلى

البضائع ، إلى البشر أنفسهم..

انكفأ زيد على نفسه ، ولم يدِر متى غلبه النعاس فجر ذلك اليوم ، فلم يصح من نومه قبل عصر اليوم التالي.. نهض متثاقلاً ، تعباً ، وكأنه لم ينام.. كانت صورة أنفاق رفح و اجتراح المقاومة لها بادئ الأمر لتهريب الأسلحة إلى المقاومة في غزة ، ماثلة أمام ناظريه ، حتى نجاح بعض أصدقائه من المطلوين والمطاردين في اجتيازها إلى سيناء ومن ثم إلى الدول العربية ، مثلت أمامه وعادت إليه صورة ماهر ، الذي تسلل من بيت لحم إلى غزة عبر صحراء النقب ، ومن بعدها إلى رفح حيث نجح ورفيقاه في الوصول إلى سيناء عبر أحد تلك الأنفاق.. كانت قصص المتسللين تصلهم في بيروت وتونس.. بتفاصيلها التي غالباً ما كان يشوبها بعض المبالغة ، التي تعتمد على خيال الراوي في كثير من الأحيان..

لم يكن أبو العبد بحاجة إلى انتظارهم طويلاً فجر ذلك اليوم ، لاصطحابهم إلى الحافلة التي يستقلها ومجموعة من العائدين إلى غزة.. فقد جافاهم النوم ، ولم يستطيعا التغلب على القلق والإحساس بالرهبة والتفكير بما ينتظرهما.. الطريق طويلة.. والمعبر لا يزال بعيداً.. رغم الكيلو مترات التي تفصلهما عنه.. وقد أثر زيد التزام الصمت وإطلاق العنان لأفكاره المبعثرة .. يحاول لمُها ، لكنها لزجة تهرب من بين يديه.. تقفز تارة ، وتارة أخرى يبحث عنها فلا يجدها.. بعد قليل سيواجه الإسرائيليون الذين أذاقوه الأمرين ، وطاردوه حتى في لقمة عيشه.. عساكر الاحتلال ، الذين حرموه حتى من حبه.. نعم الاحتلال طارد حبه ، ومنعه من ممارسة حقه في الحب والحياة.. وهو ما دفعه إلى الانخراط في المقاومة حتى يتمكن من ممارسة حقه هذا ، والدفاع عن حبه ، وعن حبيبته رباب.. حتى حين قرر العودة والعبور إلى أريحا متسللاً ، مخاطراً بحياته ومعرضاً نفسه للموت على أيدي قوات الاحتلال وحرس الحدود المتربصين على طول نهر الأردن.. بومها..

لم يفكر زيد بغير العودة إلى أريحا.. والعيش قريباً من ذكريات طفولته التي عاشها بين بيارات البرتقال والليمون.. وبساتين الموز الريحاني.. يطل عليها جبل قرنطل الذي يحضن أريحا.. ينغرس دير قرنطل في ذاكرته منذ أن غادر أريحا ، ولا يزال يعد خطواته التي اعتادت على تسلق الجبل عبر طرق جبلية وعرة ، شقّها الرهبان المعتصمون في أروقة الدير المعلق وسط الجبل منذ قرر رهبان اليونان التّصوّف والاختلاء في صومعات حفروها بأيديهم ، وحبسوا أنفسهم فيها ، تقرباً إلى الله.. وسعيّاً إلى محبته.. وهرباً من اضطهاد الكنيسة وملاحقتها لهم في القرون الوسطى..

توقفت سيارة الجيب قرب حافلة كانت تنتظر ، وقد تبين لهما أنهم يجمعون العائدين في حافلات تنطلق إلى المعبر وفق سجلات وقوائم قام مكتب الارتباط بتنظيمها.. لحظات ، تقدم أحدهم وطلب إليهما التوجه إلى الحافلة بعد أن سأل عن اسميها ، صعدا إلى الحافلة ، فيما كان الرجل يتلو أسماء الركاب ، وما أن تأكد من حضورهم جميعاً ، أشار إلى السائق بالانطلاق وقد راح يعطي تعليماته بعدم مغادرة الحافلة والتقيد بالتعليمات ، طالباً إليهم التأكد من أوراقهم الثبوتية..

انطلقت الحافلة ، وسط صمت و ذهول الجميع ، وقد تعلّقت أنظارهم بالبوابة غير البعيدة ، حيث يربط جنود الاحتلال ، أيديهم على الزناد ، وعيونهم شاحصة نحو الطريق المؤدي إلى المعبر تحسباً لأي طارئ..

حدّق زيد في المشهد غير مصدّق لما يراه ، ها هو يعبر إلى غزة ، تسارعت دقات قلبه ، وتداخلت كل الصور أمام عينيه ، و اختلّطت المشاهد في رأسه ، فيما كانت الحافلة تقترب من البوابة ، أشار أحد الجنود إلى السائق بالتوقف وإطفاء المحرك.. لحظات ، صعد الجندي إلى الحافلة ، سأل الركاب

إن كان هناك من يحمل سلاحاً ، وحين أجابوه بالنفي ، طلب من السائق جمع الوثائق الشخصية لهم ، والتقدم نحو ساحة قريبة من المدخل الرئيس للمعبر ، أعاد المشهد لزيد ذكريات اعتقاله ، وعمليات الدهم التي عاشها قبل إبعاده إلى لبنان.. تقدمت الحافلة ببطء نحو الساحة حيث كان بانتظارهم جنود الاحتلال متأهبون ، انتشروا في المكان ، وأحاطوا بالحافلة ، طلب أحد الجنود من السائق وثائق الركاب التي جمعها ، وراح ينادي عليهم واحداً تلو الآخر ، ويطلب من كل واحد التقدم إلى القاعة عبر باب أشار إليه يُفضي إلى قاعة امتلأت بالعابرين رغم الوقت المبكر ، دخل زيد وتوجه نحو مقعد خالٍ حيث أشار أحد الجنود المنتشرين في القاعة.. وكذا فعل الآخرون ، جلس زيد يحذق في المشهد أمامه ، جنود الاحتلال مدججين بأسلحتهم ، وعدد غير قليل من رجال المخابرات ، وحاجز طويل على امتداد القاعة ، اتخذ الموظفون من الشرطة مواقعهم ، لاستقبال العائدين واحداً تلو الآخر ، بعد التدقيق في الأوراق الثبوتية ، يتوجه العائد برفقة اثنين من رجال الاحتلال ، أحدهما عسكري ، والآخر رجل مخابرات بلباسه المدني ، إلى باب في آخر القاعة ، انتظر دوره طويلاً ، عشرات من زملائه غيبهم الباب ساعات طويلة ، قبل أن يتبين بأنهم يخرجون من باب آخر ، بدأ زيد يضيق ذرعاً ، لكنه بعد حين ، أدرك أنَّ الأمر جزء من اللعب بأعصابهم و استنزاف تماسكهم ورباطة جأشهم يُمسك بما ضعف من خيوط أعصابه ، يشدها ويعيد توازنه من جديد ، لحظات سمع صوتاً ينادي أسمه ، نهض متوجهاً نحو الصوت ، أحاط به اثنان ، تبعهما إلى الباب ذاته ، في مشهد أعاده إلى أيام الاعتقال ، حين كان يتوجه إلى الزنزانة ، برفقة حراس السجن ، بعد أن يسلم كل ما لديه إلى الأمانات ، لا يختلف المشهد ، عن ذلك الذي كان قبل سنوات ، سوى ابتسامة مفتعلة ، وكلمات ترحيب لم يستطع تصديقها من رجل المخابرات الذي رافقه إلى غرفة خلف الباب ، تتوسط ممراً طويلاً ، وتجاوز غرفةً أخرى على جانبي الممر... توقف الجندي أمام

الغرفة ، فيما أشار رجل المخابرات إلى زيد بالدخول...

- تفضّل..

سمع صوتاً يناديه من الداخل.. لا يزال يذكر ذلك الصوت ، إنه هو ، الكابتن روني.. وكيف له أن ينساه.. لقد لازمه ذلك الصوت سنوات طويلة ، وانطبع في ذاكرته ، إنه الكابتن روني إذن.. يصّر على ملاحقته .

- أهلاً بك في إسرائيل.. ألم أقل لك ، سوف تجدني أينما ذهبت ؟!

- بلا.. لقد كنت معي ولم تفارقني.. بل إنني كنت طوال الوقت أبحث عنك ثم إنني لست في إسرائيل ، هذه أرض فلسطين المحتلة .

- كما أنت ، لم تتغير ، هانحن نلتقي ، لقاءً مختلفاً عن كل اللقاءات السابقة . -

- كنت أتمنى لو التقيتك قبل ذلك...

- ماذا كنت ستفعل ؟

- لم أكره أحداً مثلما كرهتك .

- قدرنا أن نظل معاً .

- ليتكم تفهمون ذلك .

- أظن أننا سنفتح صفحة جديدة .

- لست واثقاً من ذلك..

3

وجد زيد نفسه وسط حشد خارج بوابة الخروج ، أدرك أنه الآن على أرض غزة ، اقترب منه شرطي بلباس عسكري ، اعتقد للوهلة الأولى ، أنه قادم لإعادته من حيث أتى ، أو ربما لاعتقاله ، مد الشرطي يده مصافحاً ، معرفاً بنفسه ، طالباً إليه مرافقته إلى ساحة قريبة ، امتلأت بالحافلات ، وسيارات الأجرة ، لحظات ، انطلقت الحافلة بعيداً عن المعبر.. تذكر رمزي ، نهض من مقعده لكن رمزي لم يكن في الحافلة .

- ربما سبقني ، وغادر إلى غزة !!

- كان عليّ أن أسأل عنه قبل مغادرتي المعبر ، قال ذلك لائماً نفسه ، وقد أحس بذنب كبير»

انطلقت الحافلة عبر فوضى عارمة ، حيث اختلط الركاب الباحثين عن سيارات تنقلهم إلى مدن قطاع غزة ، أو نداء السائقين ومشاجراتهم فيما وقف رجال شرطة عاجزين عن فعل شيء ، مستسلمين للفوضى ، التي بدت أكبر من أن يسيطر عليها ثلة من رجال الشرطة المسلحين بهراوات ليس إلا .

لحظات.. انطلقت الحافلة مبتعدةً عن المعبر ، عبر طريق كانت معبدة ذات يوم ، ولم تر الإسفلت منذ عبرتها دبابات وآليات الاحتلال قبل سبعة وعشرين عاماً .

أحس بتباطؤ الحافلة ، ثم توقفها ، اشربت أعناق الركاب تستوضح الأمر.. أطل عبر شباك الحافلة ، كان المشهد غريباً ولم يعتد عليه بعد ، عدد من

سيل من المحتشدين الذين غمروها ، ولم يعد عشرات رجال الشرطة الذين انتشروا في الساحة قادرين على حفظ النظام..

وقف زيد يحدق في الناس علّه يعثر على أحد يعرفه ، اقترب أحدهم منه ، مدّ يده مصافحاً..

- هل تنتظر أحداً ؟

- لا ، ولا أظن أحداً ينتظرني .

- نحن هنا بانتظاركم جميعاً..

قال مجاملاً ، وهو يربّت على كتف زيد ويدعوه لمرافقته .

- إلى أين ؟! سأل زيد الرجل وقد اطمأن إليه..

إلى ضيافة قريبة ، في منطقة الرمال ، تقيم فيها إلى أن تأتيك أوامر أخرى .

توجه زيد برفقة الرجل ، استقل سيارة كانت تنتظره في طرف الساحة ، وقد سبقه إليها ثلاثة رجال ، بدا عليهم أنهم من العائدين كذلك ، انطلقت السيارة عبر شوارع غزة ، وتوقفت غير بعيد عن شاطئ البحر ، لم ير في طريقه ما لفت نظره ، غير لافتة تشير إلى جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ، وبعد ذلك لافتة أخرى مثبتة على جدار إحدى البنايات ، كتب عليها شارع الثلاثين ، الأسوار في غزة ، تعلو المنازل وتحجب الرؤية ، كان يكره شكل هذه البيوت التي تذكره بالسجن ، وأسواره العالية ، وقد تنفس الصعداء حين توقفت السيارة أمام بناية من طوابق عديدة ، كان يفضل أن يكون في منزل مستقل ، لكن الأسوار المحيطة بالمنازل ، جعلته يفضل شقة يطل من نافذتها فيرى ما يحيط به ، حدق بالبناية يعد طبقاتها ، لكن أحد زملائه سبقه قائلاً..

- تبدو البناية جديدة..

- هي واحدة من بنايات عالية ، بنيت حديثاً.. رد السائق
مواصلاً حديثه عن التغيرات التي طرأت على مجتمع
غزة في السنوات الأخيرة..

تبع زيد وزملاؤه مرافقهم إلى شقة في الطابق الثالث ، سارع إلى غرفة تطل
نافذتها على البحر من بعيد ، ألقى بحقيبته إلى السرير كأنها يحجزه قبل أن
يسبقه أحد إليه.. وراح يتفقد غرفة النوم والحمام ، أكثر ما يهمه ، بعد أن
اطمأن إلى السرير والفراش ، اندفع إلى الحمام مطلقاً العنان للماء يندفع
نحو جسده المتعرق ، بحث عن شركائه في الشقة فلم يجد أحداً..
- يبدو أنهم غادروا.. قال محدثاً نفسه..

توجه نحو النافذة.. كأنها أراد أن يتفقد المكان.. ويتعرف على موقعه.. كان
الهدوء يخيم على الحي.. فالبناية في نهاية شارع فرعي.. لا يقصدها في
أغلب الأحيان إلا ساكنوها.. وزوارهم القلائل.. وقد شغلت الشقق عائلات
العائدين حديثاً إلى غزة..

لم تتغير غزة كثيراً ، شوارعها لا تزال ترابية ، والشوارع الرئيسية المعبدة ، لا
تزال كما رآها آخر مرة ، قبل خمسة عشر عاماً ، قرر مغادرة الشقة ، لكنه
تردد حين أدرك أنه لا يملك مفتاحاً لها ، جلس قرب النافذة ، مد بصره نحو
الغرب حيث يمكنه رؤية البحر يطل بزرقته من بين أبراج وبنيات بدأت
تحجب البحر عن أهل غزة ، أحس بارتياح شديد حين دخل أحدهم ، كان
الشاب الذي رافقه وزملاؤه إلى الشقة ، يدخل حاملاً في يديه بعض الأكياس
البلاستيكية ، تبين له أنها ساندويشات..

- أهلاً وسهلاً..

- أنا اسمي خليل ،
 - وأنا اسمي زيد.. قال معرّفاً بنفسه ، وواصل حديثه..
 - أشكرك على ذلك.. لكنني لا أريد سوى المفتاح ، أريد أن أذهب إلى الشاطئ..
 - أتريدني أن أرافقك ؟..
 - ..إذا رغبت بذلك ،،، لكنني أعرف المكان.. وأستطيع التجول راجلاً.. والعودة إلى الشقة..
 - كما تريد.. هاك مفتاح الشقة..
- أخذ المفتاح ودلف مغادراً ، رغم البنايات العالية لا تزال الشوارع مثلما كانت قبل خمس عشرة سنة ، كأن الزمن توقف عند شاطئ غزة ولم يدخل إلى حواريتها ، الشوارع ترابية شقتها عربات تجرها البغال ، والكثير منها لا تزال تجرها الحمير الهرمة ، تعترض طريقها سيارات فرنسية من نوع بيجو مضى على صنعها أكثر من ربع قرن.. وأظن أن المصنع توقف عن إنتاجها منذ زمن بعيد ، وربما لا يوجد مثلها في أي بلد في العالم.. وصل إلى شارع الثلاثين ، أنه ذات الشارع الذي مر به قبل سنوات طويلة ، الدكاكين ذاتها ، ومحلات البقالة لا تزال تمتد على جانبيه ، لم تتبدّل ، ولم يطرأ عليها أي تغيير ، حتى أن كثيراً من أشجار الزينة التي كانت تتوسطه ، ذبلت ، فأضفت عليه بعداً آخر ينسجم وواقع الحال..

مثل سائح كان ذات يوم هنا.. واصل زيد طريقه التي يعرفها منذ كان هنا قبل خمس عشرة سنة ، يتوقف قبل أن يواصل سيره ، كأنها يتأكد من المشهد الذي لا يزال مرسوماً في ذاكرته...هنا الجامعة الإسلامية ، ثم

واصل زيد سيره ، شارد الذهن ، فقد سمع عن وفاة أبو زكي ، لكنه لم يعرف بأمر المطعم ، أفاق على يد تهزه..

- كنت أعرف أنني سألقاك هنا ، قرب مطعم غزة ، تعال ، تعال قبل أن تضيع مني ثانية .

- انتظرتك في المعبر ، وحين أدركت أنني أضعتك هناك ، كنت واثقاً من أنني سأجذك هنا.. كم آلمني إغلاق مطعم غزة.. فقد كان جزءاً من ذاكرة لا أريد لها أن تنمحي..

- تعال نشرب قهوتنا في فندق آدم حيث أقيم مع عدد كبير من العائدين ثم نبحت عن مكان نأكل فيه السمك..

دخلا إلى الفندق الذي أقيم حديثاً ، وكأن صاحبه كان يعلم بتغير الحال ، فقد انتهى من تجهيزه قبل التوقيع على اتفاق أوسلو بقليل.. تبادلا الحديث مع بعض الحاضرين قبل أن يغادرا ، وقد ضاق المكان بالحاضرين ، تطوع أحدهم لمرافقتهم إلى مكان يعرفه ، ليس بعيداً عن فندق آدم.. استوقف ثلاث سيارات وطلب من السائقين أن يقلوهم إلى مكان قريب من مخيم الشاطئ.. حيث أقام أبو علي عريشة متواضعة ، وقد امتلك قارباً صغيراً.. يبحر فيه إلى عرض البحر.. يصطاد ما تيسر من السمك ، يساعده ابنه علي في انجاز الأمر.. مطعم غاية في البساطة ، لكنه غاية في الجمال.. وليس هناك من يقدم أشهى من أسماك.. مشوياً ومقلياً .

اقترب زيد من رمزي وقد تذكر أن عليه الاتصال برباب في رام الله ، فقد مضى يومان على دخوله غزة ولم يبلغهما بوصوله .

- اشتقت لسالم الصغير .

كان زيد لا يزال مشدوداً إلى مشهد البحر ، وكأنه غير مصدق بأنه على شاطئ غزة .

- سننتظر قليلاً إلى أن يبتعد الدبور عن المنطقة !.. قال أبو علي مخاطباً ضيوفه.. فيما راح مرافقهم يشرح لهم ما يعنيه أبو علي :

- الدبور.. قارب خفر السواحل الإسرائيلي الذي يجوب مياه غزة.. ويمنع الصيادين من النزول إلى البحر.. فينتهز الصيادون فرصة ابتعاده جنوباً ، يستغرق غيابه ساعة واحدة ، ويطلق عليه الصيادون هنا الدبور..

لقد ابتعد ، وعليّ النزول إلى البحر لعلّي أصطاد لكم ما يكفي من السمك.. هرول أبو علي نحو قاربه الصغير ، دفعه إلى الماء وقفز إليه محاولاً بمجذافه المحافظة على توازنه ، وقف زيد مستنداً إلى العريشة ، محدقاً في القارب الصغير تتقاذفه الأمواج.. توقف غير بعيد عن الشاطئ ، لم يأبه زيد بدعوة الأصدقاء للانضمام إليهم.. فقد شده المنظر.. وربما انتابته مشاعر القلق والخوف.. فرمما يفقد أبو علي حياته.. من أجل بعض السمك.. ينقل بصره بين القارب الدبور الذي غيَّبه البحر ، فلم يعد يراه..

كان الشاطئ ممتداً إلى الجنوب.. وقد بدت بعض البنايات العالية ترتفع على جانبه.. فتفسد براءته التي كان يحبها.. يبدو شاطئ الشيخ عجلين من بعيد.. يندفع ماء البحر نحو ”المواصي“ التي امتدت بساطينها حتى لامست أطراف دير البلح.. لا يزال طعم عنب الشيخ عجلين في فمه ، وقد ظل يتغنى به أينما حل وحيثما جلس... إذ لم يذق عنباً أطيب من ذاك الذي كان يأتيه مع كل قادم من غزة إلى رام الله..

بطعم الجمر

أفاق من شروده على صوت علي ينادي والده ويحثه على العودة والإسراع في الخروج من البحر... نظر زيد إلى الجنوب... كان الدور في طريقه إلى الشمال... أحس بالقلق على الرجل... أشار بيده وقد عجز عن فعل أي شيء آخر... بدا عليه القلق... انطلقت رصاصات من بعيد.. انضم الجميع إلى زيد وعلي يصرخون طالبين من الرجل العودة إلى الشاطئ... فيما القارب لا يتحرك...

- هناك شيء ما حدث لوالدي.. ليس من عادته أن يفعل ذلك..

قال علي والخوف بادٍ عليه.. انطلق نحو الشاطئ.. غير مبالٍ بنداءات انطلقت ترحوه أن يعود خوف أن يعرض نفسه للخطر..

كان الدُّبور يقترب أكثر فأكثر.. فيما أبو علي لا يزال عالقاً في عرض البحر..
كان صوت الرصاص يقترب .

- من الأفضل أن نختبئ خلف العريشة..

قال مرافقهم وهو يشير إليهم بیده..

ألقى على نفسه في مياه البحر.. وراح يسبح باتجاه والده..

ها هو قادم.. انظروا ها هو علي يصعد إلى القارب
وبأخذ المحذاف من والده..

قال مرافقهم..

- يبدو أنه أصيب..

قال زيد وقد رأى الرجل يلقي بنفسه في قاع القارب فيما كان عليّ يجذّف مسرعاً نحو الشاطئ..

- هرول بعضهم نحو علي ووالده..

سحبوا القارب إلى الشاطئ ، وساعدوا الرجل في الوصول إلى العريشة ، فيما كان كتفه ينزف دماً..

- استدعوا سيارة الإسعاف .

- الإصابة طفيفة ، فلنأخذه في سيارة عادية إذ لا داعي للانتظار .

تدافع الناس ، فيما كان أحدهم يفتح باب السيارة ، ويشير إلى أحدهم لمساعدته في دفع أبو علي إلى المقعد الخلفي ، جلس علي إلى جوار والده ، فيما جلس زيد في المقعد الأمامي طالباً إلى السائق الانطلاق نحو المشفى .

- لنذهب إلى أقرب مشفى..

- ليس لنا سوى مشفى الشفاء..

- حسن ، أسرع من فضلك..

نظر زيد إلى علي وهو يشد والده إليه ، ويضمه إلى صدره.. فيما لم يرفع أبو علي نظره عن وجه ابنه.. يحاول أن يقول شيئاً.. لكنّ علي يشير إليه أن يصمت .

- لا شيء يدعو للخوف ، الجرح طفيف... سوف تنجو...

بانتظارك الكثير ، لا بد أن تراه... ثم إنك ستتركني أعيّل

طابور خلفتك لوحدي...!؟

بطعم الجمر

ابتسم أبو علي وهو يصغي لولده.. ولم يستطع حبس بعض حبات من الدمع تساقطت ، مسحها علي بظاهر يده ، وضم رأس والده إلى صدره ، وهو يقول..

-.. لا بأس عليك.. ها نحن وصلنا..

كان زيد ينظر إلى علي ، يحدق به ، بيديه اللتين تهددهان والده ، بعينيهِ المعلقتين بوجهه وقد أدهشه سلوك الصبي ، وردة فعله إزاء ما حدث لوالده ، لهدوئه الذي لم يتوقعه من صبي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، تعامل مع الأمر كأنها تعود على ذلك.. ما أن وصلت السيارة إلى باب المستشفى ، حتى أسرع نحو غرفة الطوارئ ، أحضر نقالة ، طالباً من زيد والسائق مساعدته على رفع والده إلى النقالة ، وانطلق مسرعاً نحو غرفة الطوارئ ، تبعه زيد لكن أحد الأطباء طلب إليه الانتظار خارج الغرفة ، تقدم علي من الطبيب وقد رآه يطلب من زيد الانتظار خارج الغرفة.. تحدث إليه قليلاً.. عاد الطبيب إلى زيد مشيراً إليه بالدخول.. تقدم زيد فيما كان أحد الأطباء منهمكاً في تشخيص حاله والكشف عليه ، نظر إلى علي كأنها يسأله عن سر تغيير الطبيب لرائه..

- أبدأ.. قلت له إنك عمي..

ابتسم زيد.. وحرص على ألا يراه الطبيب فيشك في الأمر..

يبدو أن ”الدبور“ أصاب عدداً من الصيادين ، فقد كانت غرفة الطوارئ على اتساعها تعج بالمصابين ، والفوضى تعم المكان ،

لم ير زيد ذلك المشهد من قبل ، جرحى ومرضى ، أطباء وممرضون يتراخضون ، وجلبة أحدثها ذوو الجرحى ، كل يسعى إلى الاطمئنان على أحد المصابين ، ربما كان أخاه أو قريبه أو ربما أحد حرانه أو أحد أصدقائه .

- كان المستشفى أكثر ازدحاماً قبل أسابيع.. قال علي ، وقد لاحظ انبهار زيد بالمشهد..

اقترب علي من زيد ، حين لم يجبه ، فقد بدا زيد شارد الفكر زائغ النظر.. وقد أخذه المشهد بعيداً..

...أظن أنّ أحد المصابين توفي.. إني أعرفه ، إنه ياسر ، ابن مخيمنا.. مخيم الشاطئ.. يأتي كل يوم إلى البحر.. محاولاً اصطياد بعض السمك ما أمكنه ذلك.. لكنهم يطلقون النار عليه ويمنعونه من نزول البحر.. يبدو أنّ أولاد الحرام أصابوه هذه المرة.. يحاصروننا حتى من البحر.. إياك أن تصدقهم ، إنهم كذابون مخادعون.. لا يريدون السلام.. يريدوننا أن نموت.. أنا أكرههم.. أكرههم..

- هوّن عليك وتعال نسأل عن والدك..

كان الممر مزدحماً ، ولا تزال جموع الزائرين يتقاطرون على الممر ، ويتجمعون أمام غرف الطوارئ ، لكن علياً شق طريقه ، فيما وقف زيد ينظر إليه ، وقد غاب وسط الزحمة فلم يعد يراه.. انتحى جانباً ، وقد أثر عدم اللحاق به ، أو حتى التفكير في المجازفة بذلك ، لكن غياب علي لم يطل.. فقد رآه من بعيد ، يتقدم والده ، مندفعاً نحو باب الطوارئ ، طالباً طريقاً لوالده الذي لحق به متكئاً عليه.. لحظات كان أبو علي يخرج من الزحمة.. تقدم زيد من الرجل مهتئاً بسلامته ، طالباً إليه الاتكاء عليه ، فيما أشار إلى علي الإسراع في إحضار السيارة ونقله إلى البيت..

كان أبو علي محظوظاً ، فالرصاصة أصابت كتفه ، دون أن تخترقه..

- أنا آسف يا أستاذ ، لكنني أعدك بأن أعوّضها قريباً .

، وهو يحرق بأشتال العنب ، وقد بدأ العطش يأكلها ويدمرها ، بعد أن ضعف أصحابها أمام ارتفاع أسعار الأراضي ، فراحوا يقسمونها قطعاً صغيرة ، استعداداً لإقامة أبنية عليها..

اقترب من الشاطئ ، فيما كان الشفق ينتشر في الأفق يحيط بالشمس وهي تغيب في كومة من الذهب ، فينعكس احمرارها على صفحة البحر.. انه بحر غزة ، عند شاطئ الشيخ عجلين.. لا يزال المشهد جميلاً رغم التشوهات التي أحدثتها يد الإنسان ، يد الاحتلال من جهة ، ويد الناس العابرين إلى مدينة يجهلون استحقاقاتها ، وما ينتظرهم من جنونها..

جلس على صخرة على مرتفع يطل على البحر ، شدة مشهد البحر يمتد ويتمطى على امتداد النظر كأنها يستسلم لداعبة الشمس في آخر خيوطها وهي تنسحب خلف الأفق ، لا شيء هنا غير صمت يترنح على رتابة صوت الموج ، يضرب بعضه بعضاً ، كل موجة تسرع خلف سابقتها ، تلتحم بها قبل أن تستلقي على الشاطئ ، يحمله المشهد إلى شواطئ ربما ليست بعيدة ، في رحيله من شاطئ إلى آخر ، ربما كان يبحث عن شاطئه ، فلا يجده ، شاطئ غزة ، ذات الشاطئ في بيروت و الإسكندرية ، والعريش ، وتونس وغيرها من مدن المتوسط ، البحر هنا ، ليس ذاته هناك ، والشاطئ مختلف أيضاً ، لا أحد يصدق ذلك ، سينعته أصدقاؤه بالرومانسية ، والتعصب لفلسطين ، فكل شيء هنا يختلف عن مثيله في أي بلد آخر ، هكذا كان يقول وهكذا كان يراه ، مختلفاً فعلاً ، كل شيء هنا مختلف ، وللأشياء طعم آخر ، للبحر رائحة لا مثيل لها ، وهو الذي حين عيل صبره ، وضاعت به السبل ، حاول إقناع نفسه بأن وطنه حيثما حل وحيثما وجد أصدقاء ، وربما أهلاً آخرين.. ليس من السهل أن تفهم هذا التعلق بالوطن.. لماذا نتعلق بأوطاننا.. أهم الأهل والأصدقاء ، أم الأرض التي مشينا عليها وكبرنا في أحضانها ، أم البيت الذي ضمنا.. أهو المكان أم الزمان أم هي الذكريات

نومهم ، زَمَّ شفتيه تعبيراً عن استغرابه من أهل غزة ، لديهم هذا البحر الرائع.. ولا يقدرونه ولا يستمتعون به.. بل يؤثرون النوم باكراً ، طالما أحب المدن الساحلية ، بل وتمنى العيش في إحداها على بحر.. أي بحر.. كان يرى رام الله وقد أصبحت على شاطئ المتوسط ، بعد أن تسلفت مياهه عبر السهل الساحلي لتغرق المدن والقرى في طريقها نحو رام الله.. وتتوقف هناك عند منحدرات عين مصباح.. الحي الذي أحبه منذ طفولته ، ومنذ ذلك اليوم ، لا يزال يحلم ببيت صغير.. على شاطئ رام الله.. ولم ينس أبداً أن يحلم بامرأة جميلة.. تعيش معه في ذات المكان.. امرأة أحبها وحملها معه أينما ارتحل .

لازمه الحلم.. ذات الحلم في رحلته الطويلة ، لكن رام الله لا تزال تنتشر على جبالها.. يغمرها بحر الظلمات الذي لا يزال يحتلها ويغمرها منذ عشرات السنين ، حاملاً إليها الموت والدمار والحقد الذي يحمله جنود الاحتلال ، إنهم يغارون منها.. تماماً مثلما تغار تل أبيب من يافا.. رغم الدمار الذي أحدثه المحتلون في أحيائها.. نعم.. المدن تغار من بعضها.. مثلما البشر .

obeikandi.com

4

قد تكون الصورة واقعاً حسيّاً ، لكنها ليست كذلك بالمطلق ، صحيح أن الصورة انعكاس لواقع لحظي ، لكنه يحتمل قراءات أخرى ، تماماً مثل أي نص أدبي ، يتأثر معناه ، بحالة القارئ في تلك اللحظة ، وعلى أية حال ، فإن للنص كما للصورة ، كما للشعر ، معانٍ أخرى لا ندركها ولا نلتقطها ، ما خفي دائماً أعظم ، وأكثر سحراً وجمالاً ،

من هنا ، فإنّ البراءة التي قد نراها في صورة ما ، ليست إلا خداعاً بصريّاً ، مثل تلك البراءة التي نراها في جسد امرأة جميلة ، إنها براءة تدفعك إلى الشك في نزاهة بصرك ، لأن قراءتك للنص ليست بريئة ، وعيناك اللتان ترى فيها الأشياء والصور المختلفة مصنوعة من زجاج ، تحمل في ثناياها بعداً آخر يضع النص والصورة في قراءة تختلف في كل مرة عن سابقتها ، فتختلط الأبعاد ، حداثوية كانت أم واقعية ، ويسقط المتخيل في مفاهيم تصنعها ذاكرة لا تزال تبحث عن عناوين فتية ، لحكايات ترهّلت وأحاطت بها خيوط العنكبوت من كل الأنحاء ، بدا وكأنه يستعيد نصّاً قرأه ذات يوم ، أو صورة رآها معلقة على جدران أحد المعارض ،

غرق زيد في الحديث مع نفسه كأنها يستعيد نصّاً قرأه في صحيفة أو كتاب ، وقد اعتاد على ذلك ، بل وأصبح ذلك جزءاً من سلوكه ، كان يدور بنظره أنحاء المشهد المنتصب أمامه ، كأنه لوحة لا صلة لها بالواقع...

يتحسس عينيّه ، كأنها يتأكد من صحوه ، إنه في غزة ، ولبحر غزة رائحة تختلف عن رائحة أي بحر آخر ، لم ينسها ، رغم ابتعاده عنها ، ربما لأنه

بطعم الجمر

أحبها منذ لقائه الأول بها.. وربما هي البراءة التي رآها في المدينة والمشهد الأول لها.. الذي انطبع ولا يزال في ذاكرته ، رغم خيوط العنكبوت التي تحيط بها ، فالنص ، الصورة ، لا تزال مطبوعة في أعماقه ولم تفارقه أبداً.. رائحة البحر هنا تتسلل عبر حارات المدينة ، فتبعث النعاس في عيون أهلها.. بعد ما كانوا أمضوا يومهم هناك على شاطئ البحر.. رآهم زيد.. والصورة أبلغ من المتخيل.. رآهم عند البحر.. كأنها ينتظرون شيئاً ما.. لكنه تخيلهم هناك.. يقفون منذ آلاف السنين.. وقف ينظر إليهم.. وعلى الرصيف المقابل.. كان صوت فيروز يصدح مستجدياً :

تَع وَلَا تَجِي

وَأَكْذِبْ عَلَيَّ

الكذبة مش خطية

أوعدني إنو راح تجي

وتعا ولا تجی

ذات المشهد الذي رآه قبل اثنتي عشرة سنة وأكثر.. والذي لازمه أينما رحل ، لكن واقع اللحظة مختلف ، الحلم أجمل من الواقع ، والمتخيل كان ذات يوم ، أجمل مما يراه الآن.. فنحن نجمال أحلامنا فتبدو الأشياء أكثر تألقاً ، وخصوصاً ، الأشياء التي نحبها ، نتخيلها في أجمل حال ، هكذا هي غزة اليوم ، يعود إليها ، لا شك في جمالها.. لكنها أكثر جمالاً في المتخيل الذي رسمه لها في الغربة..

أفاق من شروده على صوت المؤذن.. أدرك أن الوقت مر دون أن يحس به..
نهض من مكانه ، وغادر الشرفة إلى سريره..

أمضى ليلته تلك مرتحلاً ، حاملاً بيده حقيبته الصغيرة التي اعتاد على حملها في أسفاره.. زاره طيف ايزابيل الغجرية في تلك الليلة.. حمل حقيبته وراح يركض نحو المقهى القريب هرباً من المطر الذي اشتد في تلك اللحظة.. أحسّ بارتياح حين نظر إلى مقعده الذي اعتاد عليه ، في زاوية المقهى الباريسي ذاته الذي كان يرتاده كلما ضاقت به شوارع باريس على اتساعها ،،عصر ذلك اليوم ، أحضر له النادل قهوته ، وجلس مطلقاً العنان لنظره محدقاً في حبات المطر المتساقط على طول الشارع الممتد أمامه ، مثل رسام وقف يتأمل لوحته ويبحث في أعماقه عن متخيل يعينه على إخراج لوحته كما يشتهي ، يلقي ريشته بعيداً ، وقد أحس بأنه استنفذ مخزونه كله حين اقتحمت عليه وحدته صبية التجأت إليه ، مبللة الثياب ، لم يلحظ دموعها للوهلة الأولى ، وقد اختلطت بحبات المطر ، التي تساقطت من خصلات شعرها ، جلست إلى جواره دون أن تستأذنه ، كانت ترتجف من البرد ، وقد التصق قميصها بجسدها ، فزادها إثارة ، حين وقع نظره على صدرها الفتي ، كرمانة انتصبت حلمتها ، أبعد نظره وقد أحس بالحرج ، خلع معطفه وألقاه على ظهرها ، مديده وهو يدعوها لمرافقته ، أخذها إلى شقته ذات الغرفة الواحدة في الشارع المتفرع عن شارع سان جرمان ، غير بعيد عن المقهى ذاته ، ولم تفارق الغجرية سريريه ثلاثة أيام.. حتى شفيت من الزكام والبرد الذي أصابها ،

في الأمسيات الثلاث ، كانت إيزابيل تزحف إليه مثل قطرة لسعها البرد ، فراحت تبحث عن دفء افتقدته ، ثلاثة أيام كانت تسترخي عارية بين ذراعيه ، تدفع جسدها الغض إلى جسده الملهب ، تلتصق به ، ينظر إليها ، يمرر نظره على تفاصيل جسدها ، وحين يدرك بأنها طازجة تكاد عناقيدها تسقط بين يديه.. يهيم بها ، لكنه لا يلبث أن يتراجع حين تتمللم وتفتح عينيها بثقل شديد ، يغلبها النعاس ويهدّها المرض ، يمد يده إلى جبهتها ، يدس يده تحت رأسها ، يضمها إليه.. فيما يده الأخرى تمسح العرق الذي

، والصور مثل الكلمات ، تتشابه وان اختلفت مدلولاتها ، من هنا كان التشابه بين الشعراء والرسامين.. فالقصيدة لوحة.. وان كانت اللوحة أبعد تخيلاً.. وارتباط الحلم بما تشكّل من لوحات في الذاكرة ، يجعل الحلم أكثر عمقاً من الواقع ، فنحن نعبر عن تمنياتنا في أحلامنا.. أما الواقع فيتشكل بتدخل أقل.. لأنه يفرض علينا في معظم الأحيان..

ذلك شكل من أشكال العبثية وإغراق فيها ، بل إن ما نلمسه من براءة في المتخيل الذي يتجسد في أحلامنا أحياناً ، يحمل في أحشائه أبعاداً أخرى غير ما نلمسه.. إنه كلام أفلت من الشاعر ، وخيال لم يستطع الرسام الاقتراب منه وصور لم تكتمل ملامحها في محاولات الشاعر استنساخ ذاته ولا الروائي حين يسعى إلى استحضار شخوصه ، لتتبعه وتقلده ، يجلس هناك مطلقاً العنان لخياله ، وذاكرته التي تزدهم الصور على عتباتها ، هذا الانتظار العبثي ، يدفعه إلى الإمعان في صمته ، لا شيء في ذاكرته يشبه ما يراه.. هنا لا شيء يشبه الواقع الذي يحاول الاقتراب منه ، الواقع هنا لا شيء يشبهه في المتخيل ، حالة من الانتظار.. الكل يشارك فيها دون أن يعرفوا إلى أين تأخذهم وقائع هذا الزمن... لكن الجميع في هذا المتخيل.. الرسام والكاتب والروائي يستحضرون بشراً يقلدونهم ووقائع تشبه تلك التي مرت بهم.. أو مروا بها ، هكذا يتشكل النص ، رسماً كان أم حكاية ، عناصرها البشر يتحركون في دائرة لا يملكون تحديد معالمها ، أو حتى إطارها ، يتغير شكل النص بتغير الواقع.. والواقع تحدده الوقائع... والوقائع نص غير مكتمل ، لصور يتم تركيبها وليس لها إطار أو حدود .

ثلاثة أيام مضت على دخوله غزة ، لا يزال مشدوداً يتحسس وقع أقدامه ، كأنها يتأكد من حقيقة ما يراه ، يغادر شقته القريبة من شارع الثلاثين نحو الشاطئ.. يتردد على الأماكن التي زارها قبل اثنتي عشرة سنة ، البحر ذات البحر ، والشاطئ ذاته ، لكن الناس تغيروا ، ربما غرقوا في ذهولهم

حين عجزوا عن فهم ما يجري ، فهاموا على وجوههم ، يبحثون عن إجابات لتساؤلات ازدحمت على شفاههم فانعقدت ألسنتهم ، وتحجرت مشاعرهم أمام مشهد لم يعهدوه ، وما كان لأحد أن يتوقعه ، مهما بلغ جموح أحلامه،،

ثلاثة أيام اتصل خلالها بزوجته رباب مرة واحدة ، وكان معظم الحديث بينهما عن ابنه سالم الذي لم يره منذ حمله جنود الاحتلال وأبعدوه إلى لبنان ، أما رباب فقد اختلطت مشاعره نحوها ، فلم يعد قادراً على تحديد معالمها ، يغمره الشوق لرام الله ، شوارعها ، ساحاتها ، قرميدها العتيق ، أو ما تبقى منه.. ابنه سالم ، أصدقائه.. لكن رباب وذكرياته معها ، فقد تراجعت إلى ركن قصي في ذاكرته.. استوقفه ذلك التبدّل ، وبدأ يلج عليه عصر ذلك اليوم ، حين أخذته الطريق إلى مرتفع يطل على البحر قرب شاطئ الشيخ عجلين ، لكنه سرعان ما أحس برغبته في مغادرة المكان ، حين وقع نظره على مقهى قريب أقيم حديثاً على أرض أبو مدين على الشاطئ الجنوبي لمدينة غزة.. اختار مكاناً قصياً يطل على البحر ، وجلس بانتظار النادل .

- يبدو أنك من العائدين !
نعم.. أنا منهم .
أهلاً بك.. ماذا أقدم لك..؟
أريد أولاً فنجان قهوة ، وسنرى لاحقاً ما لديكم .

- نعم.. أنا منهم .

أهلاً بك.. ماذا أقدم لك..؟

- أريد أولاً فنجان قهوة ، وسنرى لاحقاً ما لديكم .

انطلق النادل مبتعداً فيما أخرج زيد دفتر ملاحظاته الذي ظل يلازمه طول الوقت ، حتى أصبح الأمر عادة لم تفارقه.. فجأة قفزت رباب إلى أوراقه ثانية.. حاول إبعادها أو الهرب منها.. لكنها ظلت عالقة بأوراقه ، تحديق

به.. كأنها تنتظر جواباً لسؤال يعرفه جيداً.. لكنه يجهل الإجابة عليه..

- ما سرّ هذا البرود.. لماذا لم تتصل..؟! إن لم يكن برباب ،
لماذا لم تتصل بابنك سالم ؟!

قفزت الأسئلة أمامه.. دون أن ينجح في الهرب منها.. كلما هرب من سؤال..
حاصره سؤال آخر..

- أليست رباب حبيبتك التي ضحت من أجلك ، وانتظرتك
كل هذه السنين ؟!

- بلى.. لكنني لا أدري من أين جاءتني برودة مشاعري
تجاهها.. أدري أنني أحببتها حباً صادقاً ، ومازلت أحبها
حتى اليوم ، هل هو البعد كما يقولون.. أم أن الغربة
غيرتني.. وقتلت حرارة المشاعر بداخلي؟!.. لعله السفر
والارتحال.. أعاد اصطفاف مشاعري.. فاختلطت أوراقى
وفقدت الانبهار والدهشة.

- لكنها رباب.. رباب التي أعطتك ما لديها وأكثر..
وانتظرتك سنوات طويلة.. ولم تبدِ تدمراً أو شكوى..

- وأنا ، لم أنس ذلك.. لكنني أتحدث عن مشاعر لا أملك
قراراً في تشكيلها..

- العيب فيك..

- نعم العيب في.. وأنا أعترف بذلك .

- لكن ذلك لن يغير شيئاً..

- أهى واحدة أخرى ؟
- أبداً.. أقمت علاقات كثيرة.. لكنها علاقات مسافر ، ومحطات كنت أبداً فى حالى و ترحالى.. ولم أعد أذكر غير الأوقات الطيبة التى أمضيتها معهن.. أما أشكالهن فلم يعلق بذاكرتى شيء منها..
- لكنك تحبهن ؟!
- ومن منا لا يحب النساء ؟!.. ليس رجلاً من لا يحبهن.. إنهن أجمل ما فى هذه الدنيا.. لكنهن مثل النار فى الشتاء.. تشتتهى ، فتقترب منها سعياً إلى دفئها.. فإن اقتربت كثيراً ، احترقت بلهبها.. ورغم ذلك.. لا تكف عن البحث عنها والسعى إليها..
- هل أحضر لك شيئاً آخر ؟
- كاد زيد أن ىرد على السائل.. لكن نظره وقع على النادل يقف أمامه.. أفاق من شروده.. نظر إليه ، حدّق به كأنما ىريد أن يسأله عن أمر ما.. لكنه تراجع حين أفاق من شروده ، وأدرك أنّ من غير المناسب إقحامه فى أمر لا يعنيه.. انجذب نحو النادل ، حدّق به وراح يتأمله ، شيء ما استوقفه وجعله ىتردد فى الإجابة ، لكن وقوف النادل أمامه دفعه إلى اتخاذ موقف سريع..
- ما اسمك ؟..
- عزيز.. اسمى عزيز..

- ومن أين أنت يا عزيز؟..
 - أنا من السوافير ، وأقيم مع عائلتي في مخيم المغازي وسط غزة..
 - أشار زيد للنادل بالجلوس.. لكن هذا رفض معذراً ، إذ لا يجوز للعاملين الجلوس مع الزبائن .
 - حسن.. هات طبقاً من السمك.. واحرص على وجود السلطان إبراهيم .
 - سأحاول جهدي ، فالفصل ليس فصل هذا النوع من السمك .
- انطلق النادل نحو المطبخ فيما عاد زيد إلى شروده محدقاً في موج البحر يحط رحاله عند الشاطئ .
- كانت الشمس تلم خيوطها التي تناثرت على صفحات المتوسط فيما كان شاطئ غزة يغرق في العتمة رويداً رويداً ، وتتلون صفحة الماء بالأحمر ، ويزداد احمرارها ، كلما أوغلت الشمس في غيابها .
- أخذه المنظر ، وشده ، حتى أنه فقد الإحساس بالوقت ، وغرق في المشهد بأبعاده التي لم يعد يدرك لها حدوداً.. يذوب في توحده ، لا شيء يقطع ذلك ، سوى إصرار النادل بين الحين والآخر على أن يسأله إن كان يرغب في شيء آخر..
- نظر حوله ، فوجئ بخلو المكان من الزبائن.. نظر إلى ساعته ، نهض استعداداً لمغادرة المطعم وقد أدرك أن الوقت بات متأخراً.. اقترب النادل منه يحمل فاتورة الحساب ، دفع ما عليه وغادر مسرعاً.. صعد الدرجات

المؤدية إلى الشارع العام.. لكنه توقف قبل الوصول إلى الشارع حين ناداه أحدهم طالباً منه التوقف وعدم الدخول إلى الشارع.. استدار مستوضحاً ما يجري.. لكن عيارات نارية انطلقت كانت كافية لتوضيح الأمر..

انبطح أرضاً وهو ينظر خلفه حيث انطلق الصوت محذراً..

- جنود الاحتلال في الشارع ، انتظر قليلاً حتى يغادروا..
- إنهم هنا ، ولم يغادروا..
- قال في نفسه وقد أدرك أنَّ الاحتلال لا يزال هنا ولم يغادر قطاع غزة ، ضحك هزئاً ، وقد أدرك سخف ما يجري .
- أي سلام هذا ؟! قال أحد المارة..
- إنه سلام القوي يا عزيزي.. رد آخر .
- يا سلام سلّم ، قال أحدهم معلقاً وهو يرقص ساخراً
خلف الدورية التي انسحبت نحو الجنوب باتجاه
مستعمرة نتساريم ..
- قفل عائداً إلى غزة وقد سيطر الإحباط عليه ولم يعد قادراً على الخروج من
مزاجه السيئ..
- ما بالك.. أنت تعرف أنهم هنا ، لم يخرجوا.. ولم يرحوا
غزة..
- اعتقدت بأنهم ابتعدوا ولن نراهم ثانية .
- وما الفرق ؟!

- ”عين لا ترى ، قلب لا يحزن“..

كان صوت العربات العسكرية يبتعد شيئاً فشيئاً..

فيما زيد يهرول شمالاً كأنها يريد الابتعاد عن المشهد الذي حمله إلى عالم آخر..

كاد الشارع المحاذي للشاطئ يخلو من المارة إلا من بعض العائدين إلى بيوتهم ، فيما استمر إطلاق النار المتقطع ، استدار ، كأنها يتأكد من ابتعاده عن الدورية.. أو ابتعادها نحو الجنوب.. حدّق في البحر.. لا بحر يشبه بحر غزة.. البحر صافي إلا من نجوم تنعكس على صفحته ، يتوسطها قمرٌ ينتقل على ظهر الموج ، تحمله كأنه مصباح منارة تناثرت حولها حبات لؤلؤ في تناسق وانسجام مدهش ،

...هذا البحر ، كان يعج بالقراصنة ذات يوم.. وما الفرق ؟!.. الاحتلال قرصنة.. والمحتلون قراصنة.. قال لنفسه رداً على تساؤله.. وأكمل.. رحل القراصنة ، فمتى يرحل المحتلون ؟..

...جاء بهم من كل بقاع الدنيا.. انظر إلى أشكالهم وألوانهم.. مثل شعير الشحاذ ، كل حبة من خابية..

- لكنهم نجحوا في احتلال الأرض بعد أن طردوا أصحابها .

- صحيح.. فقد أطلقوا كذبة.. صدقوها ومن ثم أقنعوا العالم بها..

- العالم يا صاحبي ، شبكة تتحكم المصالح بنسيجها .

- إنهم أذكاء.. لا شك أذكاء..

فقد فشلنا في إدارة الصراع .

أخذته الطريق إلى حي الرمال.. سالكاً الدروب نفسها التي اعتاد عليها منذ أن عاد إلى غزة.. اقترب من البناية ، أحسّ بانقباض شديد.. وقد اسودت الدنيا أمام عينيه .

مر وقت طويل قبل أن يلقي بجسده المنهك على سريريه.. أو هكذا أحس..
لم يكن تعباً، لكن مشهد الدورية الإسرائيلية لم يفارقه، كأنها جاؤوا يحملون
دسالة كان يعرفها.. لكنه أبعدهما طول الوقت عن ناظره.. وتحاشى التفكير
فيها.. كان يعرف أن الاحتلال باق ولم يرحل.. وأن حاله لن تكون أفضل
من حاله قبل إبعاده.. لكنه لم ير في اتفاق أوصلو.. غير عودته إلى الوطن..
وجهد في إقناع نفسه.. بأن ذلك يكفي.. فهو لا يريد أكثر من ذلك.. في
هذه المرحلة على الأقل.. حدّق في السقف.. كأنها يبحث عن شيء ما.. نهض
مسرّعاً، حين سمع إطلاق نار.. توجه بحذر نحو النافذة المطلة على البحر
، شاهد عدداً من الزوارق تسرع نحو الشاطئ.. رغم العتمة التي كانت
تتراجع أمام الفجر الزاحف على المدينة ، حدّق في الأفق متتبّعاً الضوء
المنبعث من حلقات متفرقة يطلقها زورق كبير لم يتبين تفاصيله لكنه
تراجع حين حجبت البنايات العالية الرؤية فلم يعد ير شيئاً غير مياه البحر
تظهر تارة ثم لا تلبث أن تختفي وراء بنايات انتصبت على طول الشاطئ ،
تسحب العتمة عن صفحته ويتراجع انعكاس ضوء النجوم وقد بدأ الفجر
يشق طريقه ، فيما بدأت تتضح معالم مدينة غزة ، ببناياتها غير المتناسقة
لا ارتفاعاً ولا شكلاً... كأنها نبت بشكل عشوائي..

عاد زيد إلى سريره ، حاول أن يغفو لكنه كلما أغمض عينيه أفاق مذعوراً ، فقد كان يرى السقف يهوي على رأسه ، والغرفة تضيق عليه ، يحاول أن يجد مخرجاً ، يركض نحو الباب ، يحاول فتحه فيرتد خائباً حين يجده مقفلاً ، يفيق من نومه وقد طار النعاس من عينيه ، فلم يجد بداً من الابتعاد عن سريره ، الوقت لا يزال باكراً ، وصوت المؤذن لا يزال يصدح في الأرجاء ، منبهاً ، ”الصلاة خير من النوم“.. أحس برغبة في فنجان قهوة فتوجه نحو المطبخ..

- أين أنت يا رجل؟!.. بحثنا عنك طوال أمس ، فقد حضر أحدهم ، وأخبرنا أن عليك مراجعة دائرة الارتباط.. لأمر يتعلق بمغادرتك إلى رام الله .
- وأين دائرة الارتباط هذه ؟!
- علمت بأنها ليست بعيدة من مكتب الرئيس المعروف بـ المنتدى..
- حسن ، سأذهب إليهم في الصباح..
- قل لي.. هل أعجبتك غزة ؟.
- أنا أعرفها من قبل ، ولذلك لم يدهشني شيء.. وقد أحببت بحرّها منذ كنت هنا أول مرة..
- لكن الفوضى عارمة هنا ،
- ربع قرن كفيلة بتدمير كل شيء..
- ها نحن عدنا ، فهل سنعيد ما دمّره الاحتلال ؟!

- إذا رحل الاحتلال سنبنني ما دمره ، لكنه لم يرحل بعد ،
ولا أظنه سيفعل قريباً .
- أنت متشائم .
- لم أر ما يدفعني إلى التفاؤل..
- اسمع.. تعرفت إلى مطعم قريب ، يقصده طلاب جامعة
الأزهر قبل التوجه إلى محاضراتهم.. ما رأيك لو دعوتك
إليه.. حمص وفول و فلافل..
- وهل أعتبر ذلك دعوة للتفاؤل!؟
- اعتبرها ما شئت.. المهم ، أن تقبل دعوتي..
- قبلت.. قبلت يا صديقي..
- إذن.. استعد..

5

ما زلت احتفظ في ذاكرتي بصورة صديق قديم ، وهو يسترسل في وصف مدينته.. مدينتنا مثل امرأة تلف جسدها بعباءة ، حتى لا يظهر منه إلا بعض وجهها ، حيث يتشابه شكل النساء من بعيد ، فإذا ما اقتربت منها ، ونظرت إليها لا يغريك شيء منها ، إذ إن العباءة خبأت وأخفت كل أسرارها.. لكنهم قالوا قديماً.. المخفي أعظم.. وقد صدقوا في قولهم ، فالمرأة في مدينتنا لا تدرك جمالها إلا إذا نزعَت العباءة عنها ، ومدينتنا لا يمكنك إدراك جمالها إلا إذا دخلت إليها ، وتفقدت تفاصيلها ، لا يغريك شيء فيها ، لكن السحر يكمن في أزقتها و حاراتها تماماً مثل نساءها ، لا تدرك جمالهن إلا إذا انكشف المستور منهن .

كان صديقي يتحدث عن مدينة غزة ، مأخوذاً بسحرها وجمالها ، وحين سمعته في ذلك اليوم ، اعتقدت أنه يهذي ، ولم أصدق هذيانه.. لكنني منذ أن رأيت غزة ، أول مرة.. تزداد معرفتي بالمدينة يوماً بعد آخر ، وأرى المستور منها.. أدرك أن صديقي كان محقاً في حديثه عن غزة وما خفي من أسرارها..

انعطفت السيارة يميناً حيث مركز رشاد الشوا ثم المجلس التشريعي.. فالجندي المجهول ،..واصل السائق طريقه عبر شارع عمر المختار الذي يخترق غزة من شرقها إلى غربها ، حيث يلتقي البحر ، ويمتد شمالاً وجنوباً على طول الشاطئ.

بدا المشهد هنا مختلفاً ، حيث اختفى جنود الاحتلال ، وحل الفلسطينيون محلهم وانتشروا حول مبنى السراي الحكومي وحتى سوق فراس .

- سوف نمر عبر الشجاعية في طريقنا إلى الشارع الالتفافي المؤدي إلى معبر إيرز ، لتجنب الازدحام وتزاحم السيارات في هذه الأوقات..

- أنت السائق وأنت أدري بشعاب غزة...رد زيد على السائق فيما ابتسم الجميع دون أن يعقبوا بشيء...

كانت نقطة العبور المسماة إيرز على اسم القائد الإسرائيلي الذي دخل غزة عام 1967 من الحدود الشمالية للقطاع تبعد كيلومترات معدودة ، والطريق إليها يمر عبر سياج مكهرب أقامه الإسرائيليون على طول الحدود مع إسرائيل.. وشقوا طريقاً بجانب السياج لاستخدام دوريات حرس الحدود ،

- يشطون الطريق الترابي هذا عصر كل يوم ، ويتفقدونه صباح اليوم التالي للتأكد من أن أحداً لم يقطعه لعبور السياج إلى الجانب الإسرائيلي.. قال السائق ذلك ، فيما كان الركاب يتابعون حديثه ملتفتين إلى السياج.. ثم تابع..

- هناك في البعيد بلدة بيت لاهيا وعلى يسارنا بيت حانون ثم معبر إيرز .

كان عليه الانتظار مع زملائه في قاعة صغيرة ، التزاماً بتعليمات مرافقهم الذي انكب على انجاز الأوراق اللازمة لعبورهم الحدود ، في طريقهم إلى رام الله.. لم يمضِ طويل وقت حتى استدعاهم واحداً بعد الآخر للمثول أمام أحد الجنود ، الذي راح يدقق في أوراق كل منهم ، دسّ أوراقه في حقيبة يده ، وانطلق خارجاً وقد أحس بضغطة يرتفع ، ودقات قلبه تتسارع..

أعاده المشهد إلى اثنتي عشرة سنة مضت على خروجه من السجن ، ربما كان الفضاء هنا أكثر رحابة لكنه أحس به يضيق عليه حتى كاد يختنق ، تماماً

أسبوع ، جال بصره كأنما يبحث عنهم ، لكن المشهد تغير ، ولم يعد هناك من أثر يدل على سوق الخميس ، سوى هذه الجميزات وبعض شجيرات الصبار التي قاومت كل العوامل الطبيعية وغير الطبيعية ، وكل محاولات اقتلاعها ومحو آثار أصحاب البلاد الأصليين... حدّق في الجميزات ، وابتسم.. وقد أحسّ بارتياح للشواهد الباقية..

تستغرق الطريق من معبر بيت حانون إلى رام الله قرابة الساعة ونصف ، يعرفها ، ويحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب ، جاءها أول مرة برفقة صديق يعرف الطريق جيداً ، ويعرف القرى المحيطة بالطريق وكذلك المستعمرات التي أقيمت قبل النكبة وبعدها ، كأنما يمتحن ذاكرته.. كان يسهب في الحديث عن الأمكنة وتاريخها ، هناك قرية عاقر ، حيث يقع أهم مطار عسكري ، ورثه الإسرائيليون عن الجيش البريطاني ، وهنا قرية المسمية ، وهذه قرية السوافير ، وهذه مدرسة القرية ، أما تلك النخلة فهي ما تبقى من قرية جولس ، وهذا الحرش ما تبقى من قرية قسنطينة.. كان زيد يهمس في داخله ، كأنما يستعيد ما كان يصفه له صديقه أبو خالد ، في كل مرة رافقه إلى غزة..

أطلت جبال القدس من بعيد ، وقد اكتست بالأخضر.. إنه يعرفها جيداً ، فيها هي بيت محسير تطل على سهل اللد ودير محيس وخلدة.. من هناك كان يرى يافا وقد أحاطت بها تل أبيب بعمائرها العالية فيما بقيت يافا على حالها منذ أن حاصرتها عصابات اليهود عام 1948 ، وطرّدوا أهلها.. استوقفته لافتة انتصبت على يمين الطريق تشير إلى قرية جديدة "واحة السلام" أقامها راهب حالم على أراضٍ بعضها لدير اللطرون والبعض الآخر لقرية بيت محسير.. أرض "الحرايق".. هكذا كان يسميها أهل بيت محسير قبل طردهم منها.. "واحة السلام" ، فكرة مجنونة ، لراهب كان يحلم بإقامة وطن لجميع الأديان ، مسلمين ومسيحيين ويهود.. سكنها عدد من الشيوعيين الذين لا يؤمنون بأي دين أصلاً ، وبعض اليساريين الذين يعرفهم جيداً ، وقد

قبل احتلال عام 1967 ، وقبل غزو الإسرائيليين وتدميرهم للقريّة ، طلب من السائق أن يواصل سيره ، لم يتردد السائق وقد أحسّ بحال زيد ، لكنه عَقَبَ قائلاً :

- لقد اقتلعوا أشجار الزيتون « الروميّة » الكبيرة وأخذوها ليزينوا شوارعهم وساحاتهم ، وزرعوا بدلاً عنها الأشجار الحرجية ، انظر ماذا فعلوا ؟ انظر.. فلا شيء أبلغ من ذلك للتعبير عمّا جرى..

- لكنّ السلام آتٍ.. قال أحدهم .

- المصيبة أنكم تصدّقون ذلك.. ردّ السائق وتابع..

لقد جاءوا بكم إلى هنا ليرتاحوا منكم ، وليضعوكم تحت رحمتهم...أنتم الآن مثلنا حالكم مثل حالنا.. وربما أقل.. هذا احتلال ولن يتنازلوا عن هذه الأرض بسهولة.. أسألونا عنهم.. فنحن نعرفهم أكثر منكم .

- والاتفاقيات التي وقّعناها معهم ؟! سأل آخر

نظر السائق بالمرآة كأنها يبحث عن السائل..

- الطيّبون والسدّج فقط هم الذين يلتزمون بتوقيعهم أما هؤلاء فلا عهود لهم ، وهم ليسوا طيبين وليسوا سدّجاً.

حدّق زيد بالركاب ، وراح ينقل نظره بينهم ، فيما دار نقاش تخلله صياح كاد ينتهي بعراك ، حين جنح أحدهم بحديثه إلى حد اتهام من وقّع بالخيانة أو على الأقل بالسذاجة والجهل..

أشار زيد بيده طالباً من الجميع الهدوء .

- اسمعوا ، أنا شخصياً لا أرى فيما تم من اتفاق غير وجودنا هنا.. بالنسبة لي هذا يكفيني ولست سائلاً عن أي شيء آخر .

خَيْمُ الصَّمْتِ ، فيما انطلق السائق نحو مفترق بيت سيرا ، آخر قرية حدودية في الضفة الغربية، حدّق زيد في القرى المحيطة يساراً ويميناً ، صفا ، بيت عور التحتا ثم الفوقا ، الطيرة ، ومن بعيد تبدو قطنّة وبدوّ تحيط بها المستعمرات من كل الجهات ، انعطف السائق يساراً نحو بيتونيا المحاذية لرام الله .

حدّق زيد في معسكر عوفر ، في الخيام و البركسات المنتشرة في أرجائه .

قبل اثنتي عشرة سنة كان معسكراً فحسب..

أما اليوم فقد تحول إلى سجن كبير يعج بزبائنه من الشبان ، توقف السائق عند مدخله طالباً أوراقيهم ، جمعها وانتظر أحد الجنود الذي استعد بسلاحه ، طالباً من الركاب الترحل من السيارة والوقوف بعيداً عنها..

كانت الشمس تزحف بعيداً ، تمّد خيوطها قبل أن يغيّبها الأفق ، حمراء بلون
الذهب .

أخذ الجندي الوثائق ، فيما اصطف الركب جانباً ، ملتزمين بأوامر الجندي ،
الذي تقدم نحو السيارة وراح يفتشها فتفتشاً دقيقاً ، كأنه واثق من أن شيئاً
ما بين المقاعد أو في مكان ما في خبايا السيارة ، ملتفتاً بين الحين والآخر نحو
الركاب ، كأنها يفحص ردود أفعالهم ، اقترب أحد الجنود من السائق وسأله
بلغة عربية ركيكة :-

- ما في سلاح ؟
- لا.. لا.. ما في سلاح ، رد السائق بانكسار ظاهر..

اقترب الجندي من الركاب ، يسأل عن أسمائهم ويعيد لكل منهم أوراقه ، كان المشهد كاريكتورياً ، كأنه مسرحية تزخر بالكوميديا السوداء ، أحس وهو يحدّق في تفاصيلها برغبة في التقيؤ تارة ، وبالبكاء تارة أخرى .

أخذ أوراقه وأسرع نحو السيارة يلعن أوصلو وكل من شارك فيها ،،

استغرق وقوفهم عند الحاجز قرابة نصف ساعة قبل أن يشير الجندي بيده إيذاناً بانتهاء التفتيش مفتعلاً التجهّم والعصبية ، واصل السائق سفره بعد أن اطمأن إلى ركابه وسط صمت الجميع ، فيما بدت على السائق ابتسامة خبيثة ، نظر في المرأة إلى زيد كأنما يقول له :

- هذا أول الغيث يا أهل أوصلو.. ألم أقل لك..!؟
- أبطأ السائق مبدياً امتعاضه من كثرة الحواجز .
- ما هذا؟! سأل أحد الركاب وقد رأى طابوراً من السيارات .
- إنه حاجز فلسطيني..

نحن نهبط الآن أرض دولة أوصلو العتيدة ، شدوا الأحزمة ، اكنموا أنفاسكم ، أعني توقفوا عن التدخين ، استعيذوا بالله ، وصلّوا على النبي..

قال السائق مستهزئاً ، وهو يأخذ مكانه في صف السيارات الطويل..

- ألا تكفيّننا الحواجز الإسرائيلية؟!.. سأل أحد الركاب مستنكراً..

لا تزال بلدة بيتونيا على حالها ، الذي عرفه قبل اثنتي عشرة سنة ، بيوت متناثرة على اليمين ، فيما يسمى «بالوع بيتونيا» ، وهي أرض منخفضة ، تتجمع فيها المياه شتاءً ، وتجف صيفاً ، فيزرعها أصحابها بما تيسر من المقاتي»

ترجل من السيارة بعد أن لم يستطع مقاومة فضوله وتقدم نحو مقدمة الصف لعله يرى شيئاً ، كان المشهد غريباً ويستحق الاهتمام.. فلسطينيون بأسلحتهم وزيهم الأزرق ، فيما برز النسر الفلسطيني ، الشعار الفلسطيني على طواقي الشرطة الفلسطينية.. وقد تجمهر المارة ، وأطلت النسوة من نوافذ البيوت المجاورة وقد بدا على الجميع ذهولهم ،،

لا يختلف المشهد هنا عن مشهد حواجز الاحتلال ، إلا في شكل الجنود ،،

- إِنْهُمْ يَقْلِدُونَهُمْ.. قَالَ مَحْدَثًا نَفْسَهُ وَقِفْ عَائِدًا مُبْتَعِدًا..

لم يستغرق عبورهم وقتاً طويلاً ، فيما واصل زيد شروده مأخوذاً بما رأى ، هذه بيتونيا ، وتلك رام الله ، كأنها مدينة واحدة رام الله تحيط بها مدينة البيرة شرقاً ، وبيتونيا غرباً ، لم يتغير المشهد كثيراً ، بعض البنايات الجديدة هنا وهناك ، عدا ذلك كل شيء على حاله منذ غادرها ، المنطقة الصناعية ، بلدية رام الله ومنتزهها ، مطعم بلازا ثم البردوني ، هنا كان مطعم نَعُوم قبل أن يقوم مركز تجاري مكانه ، وهذا دَوَّار المغتربين تتوسطه مسلة تعلوها ساعة معطلة منذ احتلال المدينة عام 1967 ، حدَّق في الوجوه وباعة الأرصفة

، ذات الوجوه التي عرفها ، وذات الأماكن التي لا تزال محفورة في ذاكرته لم تفارقه أبداً.. وذات الباعة..

ها أنت في رام الله يا زيد ، المدينة التي عشقتها ، ولا تزال ، حتى يوم تقطعت بك السبل ، لازمك الحلم بلقائها ولم يغادرك طوال إبعادك.. أغمض عينيه وهو يطل على ميدان المنارة وقد استوقفه بيت شعر للجواهري حين جاء دمشق بعد غياب طويل :

آه ”دمشق“ ، نظرت إليك

كمن يتشهى وجه من عشقا

أفاق من شروده على صوت السائق يعلن وصولهم..

- الحمد لله على سلامتكم ..

- هل يمكنك أن تأخذني إلى عين مصباح؟.. سأل زيد السائق

فيما نزل الركاب جميعاً ،،،

تبعهم زيد ، صافحهم مودعاً وقد أبلغه السائق موافقته على ذلك وموافقة زيد على الأجرة التي طلبها..

لا يزال مبنى المحكمة على حاله ، محاطاً بمحلات بيع الدجاج ، والطيور على أنواعها ، أعاده مشهد الأرانب والحمام في أقفاصها إلى سنوات خلت ، كان والده يحب ”زغاليل الحمام“ حيث أتقنت أم زيد التعامل معها ، صينية بالفرن ، أيام الجمعة ، حتى أصبح الجميع ينتظرون يوم الجمعة بفارغ الصبر

مبنى وكالة الغوث على حاله ، دائرة الزراعة على اليمين ثم مخيم عين مصباح... عدد من البيوت المتواضعة والعشوائية، على جانب العين ، فيما واصل السائق طريقه غرباً ، بدأت دقات قلبه تتسارع وقد بدت من بعيد البيوت التي عرفها ، وعاش بجوارها ، أشار زيد إلى السائق بالتوقف، مرت لحظات قبل أن يستجمع قواه ويترجل من السيارة، لم يدر كيف حمل حقييته الصغيرة ليجد نفسه في مواجهة التلال الممتدة نحو الأفق في هبوط متواصل ، تناثرت قرى عدة في ثناياه ، واستقر بعضها على سفوحها، فيما بدت من بعيد مستعمرات بدت أكبر مما كانت عليه قبل إبعاده.. فقد كان يراها صباح مساء ، تطل على رام الله وتلتف حولها ، كأنها أورام سرطانية قبيحة ، أو أفاعٍ تتربص بطرائدها ، حدّق بالمشهد مأخوذاً بما يرى ، كأنها يراها لأول مرة..

..أفاق من شروده على صوت يشده من كتفه ، ويعانقه ، لحظات ، هبط الدرج مسرعاً وقد وقع نظره على سالم صاعداً ، فيما كانت شقيقته ميسون تشده وهو مأخوذ بابنه سالم الذي اختلطت المشاعر على وجهه ، كأنها لا يصدق ما يرى... عانق شقيقته التي أجهشت بالبكاء... فيما كان سالم يلقي بنفسه في حضن والده ، بينما أجهش زيد بالبكاء وهو يعانق ابنه ويلف ذراعيه حوله ويشده إليه كأنها يخشى من فقده ثانية .

وصل زيد البيت بعد اثنتي عشرة سنة ، كأنها غادره بالأمس ، كل شيء في مكانه ، لا جديد في البيت ، كل شيء على حاله ، الستائر.. المقاعد ، السجادة القديمة ذاتها التي اشتراها من بائع خليلي متجول ، لا يزال يذكر تضاريس وجهه حين سأله عن بلده... فأجابه :

- من قرية بني نعيم ، إلى الشرق من الخليل ، حيث كان الهاربون من أهل الخليل ، يلجأون إليها ، في طريقهم

إلى المدن والبلدات الأردنية، على الشاطئ الشرقي للبحر
الميت وخصوصاً مدينة الكرك التاريخية ، التي شهدت
ازدهاراً وغماءً ، إبان الغزو الصليبي ثم الدولة الأيوبية
بعد ذلك ، فاختلطت أعراق مختلفة شكلت نسيجاً فريداً
للمجتمع الكركي .

..لم يفارق سالم أباه ، كأما استعاد ذاكرته وعادت إليه صورة والده الذي
افتقده سنوات ، فيما تقاطر الجيران للسلام على زيد وتهنئته بالعودة حتى
ضاقت بهم أروقة البيت وممراته فانتشروا خارجه ، تقدمت إحدى النساء
من زيد ، عانقته بحرارة وقد حبست دموعها ، لكنها لم تستطع مواصلة
حبسها.. فانفجرت باكية..

- شفا الله رباب وأعانها على ما أصابها ، نظر زيد إلى أم
عيسى وقد فطن إلى غياب رباب عن المشهد فيما تعلّق
سالم بأبيه فأنساه ابنه ما دونه .

- أين رباب ، ماذا أصابها ؟! ..أين أمك يا سالم ؟!

- أمي في المستشفى .

- ما بها ؟!

- أمي مريضة..

- لماذا لم يخبرني أحد ، لماذا لم تخبروني ؟!

- إشتاط غضباً ، واستدار ينظر حوله كأنما يبحث عن أحد
يحمل عنه وزر ما سمع ، فيما اقترب منه زياد محاولاً
مواساته ودعوته إلى الهدوء ، ..لكن زياداً انفجر بأخيه..

- كان عليك أن تتصل بي ، لماذا لم تفعل ؟!
- لا داعي لذلك الآن ، لا تلومني.. كان وضعها سليماً ، وصحتها في أحسن حال ، فجأة تغيّر كل شيء ، وأصبح الأمر خارج السيطرة ، حين أبلغنا الأطباء بانتشار السرطان في أنحاء جسدها ، لم نترك وسيلة أو جهة إلا ولجأنا إليها لمساعدتنا ، استغرقنا الأمر أكثر من شهر لإدخالها مستشفى هداسا ، وبعد يومين أخبرني الطبيب بأمرها ، وما آلت إليه .
- تأخرتم كثيراً ، لم يترك المرض لنا ما نفعله ،
- اتصلت بكم من غزة ، لماذا لم تخبروني ؟!
- وماذا كنت ستفعل ؟!
- كنت عجلت حضوري إلى رام الله..
- وماذا ستفعل ، هل ستقدم أكثر مما قدمنا ؟!
- ما الذي جرى ، اتصلت بها ، ولم تخبرني بحالها ، ما الذي جرى ؟!
- كان ذلك قبل شهر ، وقد ساءت حالتها خلال ذلك ، وبشكل سريع ، لم يُقصر أحد منّا في إنقاذها حتى لو كنت هنا ، لم يكن بمقدورك أن تفعل أكثر مما فعلنا .
- لماذا لم تخبروني ؟!
- وماذا كنت ستفعل ، غير الألم والحسرة ؟!

- وأين والدتك ؟
- إنها هناك ، في المستشفى ، لم تفارق رباب .
- إغرورقت عينا زيد ، اقترب من زياد كأنها يعتذر منه ، وراح يبكي فيما اقترب سالم من أبيه يشده إليه وقد أجهش بالبكاء..
- بابا... غداً سنذهب إلى المستشفى معاً... قال سالم وهو يشد على يد والده .
- أحسَّ زيد بالغرفة تنقلب على رأسه بالكاد أمسك بابنه ، وألقى بجسده على الأريكة القريبة ، وهو يشده إليه ويخفي دموعه التي لم يستطع حبسها ومنعها من الانفلات..
- تماسك يا زيد...
- أريد أن أذهب إليها..
- لا سبيل لذلك من دون تصريح ، والأمر ليس بهذه السهولة..
- لن أنتظر تصريحاً للذهاب إلى هدا..
- وماذا ستفعل ؟!
- سأتدبر أمري ، لا تخش عليّ..
- قال زياد محاولاً طمأنة زيد...

تذكر أن عليه إيقاظه وقد قرر اصطحابه إلى المستشفى ، ساعده في ارتداء ملابسه وهو يحثه ويستعجله قبل طلوع النهار .

الطريق إلى القدس ، تمر عبر مخيم قلنديا حيث الحاجز الإسرائيلي يمنع العابرين إلى المدينة وضواحيها من الاقتراب والعبور دون تصاريح تسمح لهم بمواصلة سفرهم بعد خضوعهم لتفتيش دقيق ، ومحض أوراقهم الثبوتية .

أشار بيده لسيارة أجرة متوجهة إلى الحاجز .

- هل يمكنك أخذني إلى الحاجز ؟

أشار له السائق بالصعود.. فيما راح زيد يوصي ابنه بالتزام الصمت وعدم الإجابة على أسئلة العساكر على الحاجز وعدم الابتعاد عنه..

- أنا أعرف الطريق القدس ، لقد تسللت إليها عدة مرات،

- هل تريد العبور إلى القدس ؟

- سأحاول ذلك .

سأل السائق زيدا ، وأجابه متحفظاً..

نظر زيد إلى السائق كأنها أدرك أن لديه ما يضيفه ، فيما صمت السائق كأنها انتظر مبادرة زيد بالحديث.. انتظر كل منهما الآخر ، لحظات من الصمت لم تطل ، فقد أدرك السائق أنهما يقتربان من حاجز قلنديا.. فقرر الخروج عن صمته..

- أتريد الوصول إلى القدس ؟

- لم يفاجأ زيد بالسؤال ، لكنه قرر التحفظ بالإجابة ،

- حسن ، المهم أن تكون واثقاً من سائقها .

- توكل على الله ، إنشاء الله سوف تصل إلى هداسا سالمًا..

نقده الخمسين دولاراً ، فيما هبط السائق يساراً نحو شارع يؤدي إلى الكسارات ومن هناك صعد إلى الشارع الرئيس وواصل سيره شرقاً نحو عناتا ، استوقفهم حاجز عسكري عند مدخل قرية جبع..

- إلى أين ؟

سأل الجندي السائق ماداً يده لتفحص وثائقه ، فيما نظر إلى زيد وسالم ، لحظات ، أشار بيده للسائق بمواصلة السفر .

هبط الطريق الواصلة بين جبع وقرية حزما التي أطل طرفها الشمالي على رأس تلة تهبط من حدود بيت حنينا التي طوّقتها مستعمرات امتدت ولا تزال كالأفعى حول القدس وشعفاط وبيت حنينا والرام ، على تلال تنحدر شرقاً نحو غور الأردن ، حاصرتهم وحالت دون تمدهم .

انعطف السائق يساراً متجنباً الاقتراب من حاجز حزما ، سالكاً طريق أريحا ، لكن حاجزاً آخر على مدخل عناتا استوقفهم ، دقق في أوراقهم قبل أن يشير الجندي بيده سامحاً لهم بالعبور إلى عناتا..

انطلق السائق بسيارته نحو بلدة شعفاط ، عبر المخيم الذي ازدحم بأهالي حي المغاربة بعد أن رخلهم الإسرائيليون إليه من الحي الذي تحول إلى ساحة كبيرة ملاصقة لحائط المسجد الأقصى الغربي وحوّله اليهود إلى حائط المبكى يقيمون فيه صلاتهم وشعائرتهم أيام السبت بعد أن هدموا مئات المنازل والبيوت وأجبروا أصحابها على مغادرة المدينة إلى شمالها حيث مخيم شعفاط بعد احتلال المدينة في العام 1967 .

قبل أن يصل إلى المخيم انعطف السائق عبر زقاق ضيق ، حيث كانت سيارة صغيرة تحمل لوحة صفراء إسرائيلية ، متوقفة وسط الزقاق..

- هذه السيارة التي ستقلكما إلى هدا سا ، ترجّل زيد وابنه سالم وانتقلا إلى السيارة الأخرى ، نقده خمسين دولاراً..
- لحظات انطلقت السيارة عبر الزقاق ، نحو الشارع الرئيس المؤدّي إلى شعفاط .
- هناك سيارة حرس الحدود ، تقف قريباً من المدخل الشرقي بحثاً عن متسللين إلى القدس.
- الله يستر .
- توكل على الله .
- انطلق السائق نحو الشارع الرئيس ، نظر يساراً ويميناً ، توقف قبل أن يعبر الشارع .
- لا خوف علينا ، دخلناها سالمين ، قال السائق كأنها يحدث نفسه ويطمئنها .
- لن أطمئن حتى نصل مستشفى هدا سا .
- واصل السائق طريقه عبر الشارع الجديد الذي يربط مستعمرة راموت التي أقيمت على أراضي لفتا وشعفاط وبيت إكسا وبيت حنينا .
- هبط السائق بسيارته باتجاه مفرق راموت صعوداً إلى الشارع الرئيس المؤدّي إلى بافا ، وتل أبيب .

- هذه الشوارع جديدة ، لم تكن منذ عشر سنوات خلت .
- نظر السائق إلى زيد كأنها استغرب ملاحظته ، وقبل أن يسأل ، بادره زيد .
- أنا من العائدين ، كنت هنا قبل اثنتي عشرة سنة .
- أه فهمت.. نعم إنها جديدة ، قلبوا القدس رأساً على عقب ، نحن أبناء القدس لم نعد نعرفها.. إنها قدس جديدة ، لا علاقة لها بمدينتنا ، لقد غيروا معالمها تماماً .
- كانت السيارة تواصل صعودها نحو الشارع الرئيس المؤدي إلى دير ياسين ميمناً وعين كارم يساراً ، الأولى هرب من تبقى من أهلها بعد المجزرة التي ارتكبتها عصابات الهاغاناه وراح ضحيتها أكثر من مئة من الرجال والنساء والأطفال ، أربعوا القرى القريبة ، فهرب أهالي القرى المجاورة خوفاً من الإرهاب الصهيوني.. وبقيت بيوتهم على حالها حتى اليوم..
- تلك هداسا عين كارم.. قال السائق ، كأنها أراد أن يطمئن زيدا .
- بدت دقات قلب زيد تتسارع وتعلو ، لحظات أبطأ السائق ثم توقف قبل البوابة الرئيسة مشيراً إلى سالم بالنزول من السيارة..
- اذهب إلى تلك البوابة ، واسأل الاستعلامات عن القسم الذي تريده ، ولا حاجة لذهابي أبعد من ذلك .
- أسرع سالم نحو طرف البناية الرئيسة ، وتوجه نحو الاستعلامات .
- الطابق الرابع غرفة رقم 402 ، قالت العاملة وهي تشير إلى المصعد القريب .

- زید ، کیف حالک یا زید ؟!

لم يصدق ما سمع.. لكنه أفاق من ارتبائه ، نظر إلى صاحب الصوت ، وقف بلا حراك.. وقد أحسَّ للحظة بدوار كاد يوقعه أرضاً ، تماسك وهو لا يزال يحذِّق مصدر الصوت..

- لقد تبعتك من حاجر قلنديا..

- لا بأس.. أمهلني قليلاً من الوقت وأعدك بأن أسلم نفسي ،
وأفعل بي بعد ذلك ما تشاء .

- وماذا سأفعل بك ؟!

- افعل ما تشاء ، دعني أزور زوجتي ربما لن أراها بعد اليوم..

- أنا أعرف ذلك .

- وماذا تريد مني؟!!

- لا شيء الآن ، ولكن من يدري ربما احتجتك لاحقاً .

- کابتن روئي ، ماذا تعني ؟!

- لا شيء ، اذهب ، لن أسألك الآن شيئاً ، لكننا حتماً سنلتقي .

- من هذا وماذا يريد منك؟! سأل سالم والده فيما عيناه معلقتان بالكابتن روني...

وانطلق زيد إلى المصعد غير مبالٍ بغير الوصول إلى رباب.

كلما اقترب من الغرفة ، ثقلت قدماه حتى كاد يفقد الإحساس بهما ، توقف أمام الغرفة رقم 402 ، كان الباب مفتوحاً ، ولا أثر لأحد فيها... لم يعجبه حال الغرفة وغياب رباب وأمه عنها .

- بابا ، أمي ليست هنا !!

بدا القلق على سالم وهو يخبر والده ، ما أزعج زيداً ، وجعله يزداد قلقاً ،

- سالم ، لا تقلق ، اذهب واسأل إحدى الممرضات العاملات في القسم ، إذ لا بد أن تفيدك بشيء .

قبل أن يغادر سالم الغرفة ، دخلت ممرضة روسية الملامح ، سألت زيداً عما يفعل في الغرفة ، أجابها ، فأخبرته بأنهم أخذوها إلى غرفة الأشعة وستعود حال انتهائهم من ذلك .

اطمأن زيد قليلاً ، وحاول طمأنة ابنه سالم .

- تعال ننتظرهما هناك ، قرب باب الغرفة .

خاطب زيد ابنه سالم ، وهو يشدّه من يده نحو الباب .

- ها هي جدتي .

أشار سالم بيده ، فيما استدار زيد نحو ممرض يجر سريراً في الممر ، بينما بدت أم زيد بثوبها الفلسطيني المطرّز ، الذي كانت تصرّ على ارتدائه وعدم تبديله بأيّ زيٍّ آخر.. كانت أم زيد تجر قدميها بثقل ، وقد بدت مرهقة والتعب بادٍ على وجهها.. لكنها حين وقع بصرها على سالم ، جاهدت للسعي إليه ، فيما وقف زيد يحدق بهما ، مشدوداً إلى رباب ، ممددة على السرير تارة ، وإلى أمه تارة أخرى ، وقد بدا عليه الذعر والقلق .

كلما وضع رأسه على مخدته ، لازمته الكوابيس حتى مطلع الفجر ، وجافاه النوم حتى الصباح ، يتقلب في سريره ، يستحضر أريحا ، يكاد يعد شجر النخيل في بساطينها ، وتملؤه رائحة زهر الليمون وهو يغادرها صاعداً الطريق المتعرج نحو رام الله ، عبر بلدة الطيبة ، وحين يهبط الطريق المؤدية إلى البالوع شمال رام الله معرجاً على مدينة البيرة ، المحاذية لرام الله ، يواصل إلى المنارة وسط المدينة التي عشقها يصرخ في نومه ، ويصحو كأنه في نومه حتى لم يحتمل ذاك البعد ، فقرر ذات فجر الرحيل إلى رام الله عبر أريحا ، وكان ما كان ، التقاها هناك ، وبعد شهور من الصداقة ، أحبها وأحبته ، حين عاد إلى رام الله وأريحا ، لم يكن يريد أكثر من ذلك.. أن يلتقي حبه ويعيش حياته .

- ارجع يا بني هداك الله ، وطنك محتل ، وما فائدة العيش في وطن محتل ، إن كنت تعود من أجل إنقاذ وطنك ، فلا بأس ، وإلا ، فلا داعي للمخاطرة من أجل العيش في رام الله تحت نير الاحتلال ، أنت شاب والمستقبل أمامك ، فلا تضيع مستقبلك..

كان صوت الجندي الأردني فايز الكيلاني ، الذي يقف على ضفاف نهر الأردن والذي ضبطه وهو في طريقه متسللاً إلى العوجا- شمال أريحا - عبر نهر الأردن وحاول إقناعه بالعدول عن المخاطرة ، لا يزال يتردد صده في أعماقه وصورة ذلك الجندي ماثلة في ذاكرته لكنه لم ينسَ رده على الجندي..

- لست معنياً بالاحتلال ، سوف أعيش حياة قانعة ، وما دمت في حالي ، فلن يتعرّضوا لي..

- وهل تعتقد بأنهم سوف يتركوك في حالك ؟!

- مالي ومال الاحتلال ، هم في حالهم وأنا في حالي..

6

زيد ، ها أنت في وطنك ، ووطنك الذي أمضيت عمرك تركض خلفه ، وكلما اقتربت منه ، فرّ من بين يديك ، دفعت شبابك ثمناً للعيش فيه ، وجل ما كنت تبغيه ، أن يمنحك السعادة والفرح ، عدت إليه متسللاً ، بعد أن بعث حبك الأول من أجل حبك لأريحا ورام الله والقدس فهل بادلتك الحب هذه المدين ، التي عشقتها وكدت تموت من أجلها ، أمضيت شبابك في السجن تارةً وفي الشتات تارةً أخرى ، وها أنت في وطنك مرة أخرى ، وها هي رباب التي اعتقدت بأنها آخر الأحزان وأول الفرح ، يستقبلك الوطن بحزن جديد ، أكبر من كل الأحزان التي مرّت عليك ، ولا يبدو أول للفرح ، كأنه حب من طرف واحد ، وكأنك تغرق في الحزن من جديد .

عشت حياتك في الغربة بالطول والعرض ، حتى كدت تنسى رباب ومدنك التي عشقتها ، حين أخذتك المدين الجديدة وكدت تضيع في زحمتها ، ويوم قررت العودة لم تكن رباب سبباً رئيساً في اتخاذك قرار العودة ، ربما كان ابنك سالم ، وربما كان عشقك لرام الله وأريحا ، أموراً وأسباباً أخرى ، وحدك تعرفها ولا أحد سواك ، عد إلى الأيام القليلة الماضية ، يوم وصلت إلى غزة ، ثم انتظارك في رفح والعريش ، وحتى وأنت في القاهرة ، أين كانت رباب من لهفتك ، أخذتك باريس وروما وأثينا حتى كدت تنساها.. أخذتك مدن أخرى غير مدنك التي أحببتها ذات يوم ، وعدت إليها متسللاً ، أنسيت حين كدت تقع بأيدي دورية حرس الحدود ، لولا سالم ، سالم الذي أنقذك ، وسالم الذي كان سبباً في انضمامك إلى المقاومة ، مقاومة الاحتلال ، من أجل حريتك أولاً ، من أجل حبك ، الذي منعوك من ممارسته فقررت مقاومتهم ، لأجل حبك ، وامتلاك حريتك وحقق في الحب والحياة ، سخرت منهم يوم أبعدوك ، لكنك لم تدرك ما فعلوه بك ، انظر

المطار ، فإن صادف هبوط طائرة ، توقف مرور السيارات إلى حين هبوطها ، لا تزال رباب تذكر ذلك جيداً ، لكن الطريق إلى رام الله مختلف هذه المرة ، أو هكذا رآه ، لا شك أن رباب هي المختلفة وليست الطريق ، التلال الممتدة خلف الكسارات التي قضمت من الجبال والتلال المحيطة بالمخيم والقرى المجاورة جزءاً كبيراً منها ، فشوهت طبيعتها ، وأفسدت المنطقة بأسرها ، حيث اصطبغت الجبال والبيوت وما تبقى من أشجار بغبار الكسارات ، فيما ارتفعت البنايات بشكل عشوائي حول الطريق ، وكذلك التعدادات على الشارع وعلى أملاك الغير .

- انظر إلى المنطقة وما فعلوه بها !! دمرُوا كل شيء .

هزّ زيد رأسه دون أن يرفع عينيه عن رباب ، كأنها لم يجد ما يضيفه ، ربما بحث عن إضافة أو تعليق فلم يجد ، وحين عجز أثر الصمت وواصل النظر إلى رباب كأنها يقول لها - هناك ما هو أهم من ذلك .

الطريق مزدحم بالسيارات وبالمشاة المتجهين إلى الحاجز ، متجهمين ، يلعنون الاحتلال وكل من كان سبباً في سوء حالهم ومن أوصلوهم ، إلى ما هم فيه ، رائحة النفائات المتراكمة على جانبي الشارع والحفر التي تذكرك بالإسفلت الذي كان يغطي الطريق قبل عشرات السنين ولم يبقَ منه غير القليل على الأطراف .

هنا تحس باغتراب شديد ، كأن المنطقة جملاً خارج النص والناس مفردات في نص غير متماسك ، تناثرت حروفه فلم تعد تجد له معنى ، الناس هنا يحثون الخطى نحو الحاجز ، لا شأن لهم بما يجري حولهم ولا علاقة لهم بالمكان ، كأنهم لا يرون ما يجري حولهم ، لا يشدهم شيء سوى الطابور وزحمة المتعاريكين المتسابقين للعبور إلى القدس ، وجنود الاحتلال يتفنون في إيذائهم والتلذذ بإذلالهم ، يمتثلون حقدًا على الآخر ، أما هؤلاء العابرون إلى القدس فلا حول لهم ولا قوة ، تقاطر الباعة قرب الحاجز ، يبيعون كل شيء ، كل شيء ، الفواكه والملابس والأجهزة الكهربائية الرخيصة ، أجهزة الهاتف والأجهزة الخلووية ، كل شيء حتى الكتب والمجلات والساندويشات المختلفة ، هنا سوق مفتوحة في منطقة حرة ،

تيسر من القرآن على رأسها ، لعلها تطرد الشر وتخفف عنها ، وتبعث الطمأنينة إلى قلبها ، بينما كان سالم سكوتاً ، يؤثر الاستماع إلى محدثه ، والتمعن فيما يقول ، ورغم بلوغه المبكر ، إلا أنه كان يبدو أكبر من ذلك بكثير ، فقد أفاق على صوت دبابات الاحتلال وعرباتهم العسكرية ، تحتاج مدينته كل يوم ، تجوب الشوارع معلنة حظر التجوال ، تنشر الرعب والموت في عيون الأطفال والنساء والشيوخ ، كان سالم مثل كل الأطفال يبحث عن تفسير لما يجري وأجوبة لأسئلة كثيرة يقف عاجزاً أمامها ، سنة بعد أخرى ، لم يتغير المشهد أمام ناظريه ، بل إنه ازداد سوءاً وسوداوية ، سأل نفسه مرات ومرات ، لماذا كل هذا الحقد ؟ لماذا يكرهونا إلى هذا الحد ؟ ماذا فعلنا لهم ؟! لقد جاءونا من كل بقاع الأرض ، أخذوا أرضنا ودمروا بيوتنا ، طردونا وحولونا إلى لاجئين ، ولم يكتفوا بذلك ، بل إنهم ما زالوا يطاردونا أينما ذهبنا ، نضج قبل أوانه ، مثل كل الأطفال في بلدٍ عبثاً يحاول استعادة طفولته أينما اتجه ، يقف الاحتلال حائلاً دون أحلامه تنكسر براءته أمام عربات الاحتلال ودباباته ومجنزراته ، وحين كبر ، أدرك أن ما حل بوالديه ، يتكرر له ، وسوف يتكرر لأجيال من بعده .

جلس سالم صامتاً يسرّح نظره بين أمه وأبيه وجدته ، باحثاً عن إجابات لأسئلة كثيرة ازدحمت في رأسه فاختلطت عليه الأمور ولم يعد يفهم معظمها .

نظر السائق إليهم عبر مرآة سيارة الإسعاف منطلقاً عبر الشارع الرئيس المؤدّي إلى ميدان المنارة وسط المدينة ، حيث يتقاطر الناس مغادرين سوق الخضار والمحلات التجارية المحيطة بالسوق ومحطة الباصات القريبة ، فيما ازدحمت سيارات الأجرة وعلت أصوات سائقيها ينادون على الركاب المغادرين إلى حاجز قلندية ، في طريقهم إلى القدس وضواحيها.

..يا موت ، تمنيتك ذات يوم ولم تأت ، انتظرتك خلف أبواب موصدة ولم يفتح أي منها ، تعاركت مع ذكرياتي ، وأصابني هوس الرحيل إلى المدن الغربية ، ظننت أن حقائبي لن تتسع لذكرياتي ، فرحلت من دونها ، وفرحت حين اعتقدت بأنّي

وأنت تدرك أن كل ما تفعله ليس أكثر من هروب ، حتى ارتطم رأسك بالحائط فصحت ، أو ربما لم تصح بعد .

ها هي رباب أمامك ، تستلقي على سريرها ، عاجزة ، وعجزها ليس أكثر من عجزك ، أقعدها المرض ، حتى بتّ أضعف من رباب التي تستلقي في غرفتها شبه غائبة عن الوعي ، تحديق بها فيما يدسّ سالم جسده إلى جانب أمّه مثلما كان يفعل في طفولته ، يحضنها بذراعيه ، لكنها نائمة أو غائبة عن الوعي ، لا تبدي أي رد فعل ، انسحبت أم زيد إلى المطبخ ، فيما كان زيد يقترب من سالم ويدعوه إلى مغادرة الغرفة .

- سالم ، تعال معي ، أمك نائمة فلا تزعجها .

انسحب سالم من جانب أمه ، متثاقلاً وعلى مضض ، ينظر تارة إلى أمه ، وتارة إلى أبيه ، فيما وقف زيد يحثه على مغادرة الغرفة ، فلا يجد مناصاً من الانصياع لوالده .

كأنها يراها لأول مرّة ، كبرت الدالية حتى غطت العريشة ، حيث أخذته قدماه إلى اثنتي عشرة سنة مضت ، هنا أمضى ليالٍ طويلة ، صورٌ تمّاهت أمام ناظريه ، صور شتى تزاحمت على نوافذ ذاكرته ، جهد في إعادة تشكيلها قبل أن تفلت وتنزلق بعيداً ، لكن صورة أبيه لا تزال محفورة في الذاكرة ، وتبدو أكثر وضوحاً من الصور الأخرى ، حدّق في وجه والده ، الذي رآه جالساً على صوفة الخيزران القديمة ، يداعب سبخته الطويلة ذات الحبّات السوداء ، والشاهدان المرصعان بأحجار كريمة ، والتي لم تفارقه منذ أورثته إياها والدته ، متكئاً على عصا ظلت تصحبه منذ أن انزلق غصروفه باكراً في حوض الحمام وبدأت رحلته الطويلة مع الأم ظهره .

- آه يا أبا زيد ، استعجلت الرحيل ، مثل كل الذين نحبهم ، يستعجلون الرحيل دائماً ، مضى العمر سريعاً يا أبا زيد ،

لم نحس به ، مثل ريح مرت على بيدر ، تحمل ما تستطيع
حمله ، يتطاير الزرع وتختبئ السنابل في ثنايا البيدر ، تطاير
العمر وأخذ معه من نحبهم ، كم هو قصير هذا العمر ،
قصير إلى حدّ لا يسمح بتحقيق أحلامنا ، نغرق في الحلم
وحين نصحو ، نكتشف أنّ الحلم ذاته يحاصرنا ، ولا نملك
فكاكاً من أسره ، داهمنا العمر وغادرنّا الذين نحبهم ، واحداً
تلو الآخر ، كأنهم النجوم تهوي ، نجماً إثر نجم ، يطبق
الظلام على سمائك وتضيق بك الأرض حتى تصبح باتساع
القبر ، ليس أكثر .

ينفتح الفضاء ملقحاً بالأبيض ، ضباباً يغطي التلال الممتدة من رام الله باتجاه الساحل ، متسللاً من البحر عبر الأودية ، فيضفي على المشهد سحراً آخر يشدك إلى المدينة ، سحراً قلماً تجده في مدينة أخرى .

آه يا أبا زيد ، لماذا تقسو الحياة علينا بهذا القدر ، نحبها ونتمسك بها ، تعطينا الكثير ، لكنها تأخذ منّا ما اعتقدنا أننا امتلكنها إلى الأبد ، رباب تموت أمام ناظري ، ولا أملك أي شيء ، رباب الجميلة يا أبي ، ترحل بعيداً ، ولا أستطيع فعل شيء لأمنع رحيلها ، الحياة تمعن في قسوتها ، تلاحقني وتغلق الدروب كلها ، ماذا عساي أن أفعل ، أشر عليّ يا والدي ، أنا قادر على مواجهة الصعاب أيّاً كانت ، وقد واجهتها وهزمتها لكنه الموت يا أبا زيد ، إنه الرحيل الأبدي ، وهذا الرحيل لا يُحتمل .

اغرورقت عيناه ، ولم يفكر حتى بالتوقف عن البكاء ، فقد جرى الدمع غزيراً ، استسلم زيد له ، ولم يقاوم تدفقه ، فقد أحس براحة كان بحاجة إليها ، فأطلق العنان لدمعه بتدفق كيفما شاء ، لكن طيف والده ، كان بتشكل ظلاً ، يتحسد

أمامه ، يستند على عكازته ، وسبحته القديمة ، مثل نص قديم في مخطوطة بالية علاها الغبار وأكلت حروفها رطوبة المكان ، بانتظار من يعيد قراءة حروفها ويترجم مضمون كلماتها ، حدّق في طيف والده كأنها يستحضره ، إنه أمامه بشحمه ولحمه ، ينظر إليه مبتسماً أو ربما ساخراً ، يقترب منه ، يهمس له ويسمعه..

- نحن يا بني لا نملك أن نغير قدرنا وفي عنفوان شبابنا وانتشائنا بالعزّة والقوة الزائفة ، نسخر من أقدارنا ونعتقد أننا قادرون على رسم خطوط مستقبلنا ، غير أنّ الخوف يملكنا حين نستشعر الخطر ، فينتابنا إحساس بالعجز ، يحاصرنا فلا نملك غير الإستسلام لهذا القدر والاعتراف بالهزيمة ، عندها نتمسك بدعائنا إلى الله واعترافنا بضعفنا وعجزنا .

اللهم لا نسألك ردّ القضاء ، لكننا نسألك اللطف فيه .

obeikandi.com

على مهلٍ ودون أن تُحدث صوتاً ، كأنها مشت على رؤوس أصابعها ، تقدّمت أم زيد حاملة إبريق الشاي بيد والفناجين بيد أخرى ، فيما كان سام يجهد في دفع الأرجوحة إلى الأمام ، دون أن يلتفت إلى أحد ، مواصلاً انشغاله بأرجوحته ، دافعاً قدميه في الهواء ، مغمضاً عينيه كلما اندفع جسده إلى الأمام ، محلّقاً كعصفور فوق المنحدر ، تلامس قدماه الضفة الأخرى المقابلة ، ثم لا يلبث أن يعود ، حين تشدّ الأرجوحة نحو العريشة ، فيصحو من حلمه على صوت جدته تدعوه لشرب الشاي معها ومع والده ، يقطع حلمه ، أو يعلّقه على أمل العودة إليه والتحليق ثانية في الأودية والتلال المقابلة ، يغادر أرجوحته التي أحبها منذ طفولته وتعلق بها حتى حين أصبح شاباً .

خيّم الصمت على المكان ، خلا حفيف أوراق شجرة الكينا القريبة من العريشة ، وصوت بعض العصافير التي تقاطرت على شجرة الصفصاف الممتدة أغصانها حتى أطراف الدالية.

حدّق زيد في عصفور حط على غصن قريب تجنبت بقية العصافير الاقتراب منه ، كأنها ملتزمة بنظام غير مكتوب ، لا يسمح لأحد بالاقتراب من أملاك الغير ، كان العصفور يحمل في منقاره طعاماً لم يتبينه زيد ، لكنه أدرك أنه طعام لصغيره الذي لا يزال غصّاً لا يقوى على الطيران ، فاختبأ في عشٍ أعدته أمّه ولم يغادره منذ كان محضناً في بيضته ، ما لبث أن ضاق ذرعاً بها فشققها وانطلق مترنحاً مصارعاً من أجل البقاء ، أما سام فقد غادر مقعده بجوار والده ، مهرولاً نحو أمه ، كأنها أحس بها تناديه ، فيما تبعه زيد بناظريه ، وقد خالجه شعور بأن شيئاً ما قد حدث... حاول النهوض واللاحق بابنه ، لكن قدميه لم تسعفاه ، نهضت أم زيد

وقد أحست بالقلق الذي أقعد زيداً عن اللحاق بابنه ، لكنها لم تقو على ردع سالم ومنعه من التسلل إلى أمه... وقفت عند باب الغرفة مذهولة ، محدقة بسالم وهو يعانق أمه... استندت إلى الباب وقد أحست بدوار كاد يفقدها توازنها ، وهي تحديق بالمشهد مأخوذة بما ترى... اقترب زيد من أمه ، أمسك بيدها ودفعا إلى الخلف ، بيد أن الخوف من خبر سيء منعه من الاقتراب أكثر... وقف وسط الحجرة محدقاً بالسريـر ، وقد تهيأ لرؤية ما لم يكن يرغب في رؤيته ، رغم إدراكه بأن الأمر آتٍ غير بعيد ، كاد يجهش بالبكاء ، لولا يد رباب التي تحركت لتحضن سالم ، خطأ زيد نحو السرير ، فيما كانت رباب تجهد لرفع يدها كأنها أرادت أن تدعوه إلى الاقتراب منها .

- هل أنت بخير ؟!

سأل زيد رباب بصوت أجش .

- أنا بخير ، انظر إلى سالم ، مضى وقت طويل لم يعانقني كما بفعل الآن .

- تعلق بك أكثر منى .

لم يرك منذ زمن طويل .

- لکنہ بدأ یستعیدنی فی ذاکرتہ ، ویوصل ما انقطع منها .

مدّ یده ماراً بها علی جبینها ، لکنه سرعان ما تراجع حین لامست یده طرف شعرها المتساقط .

- هل ترغبين في شيء ؟

- اشتقت إلى فنجان قهوة من يدك .

أسرع زيد إلى المطبخ ، كأنها يهرب من حديث قد يقترب من حالها ، ويلامس الدمار الذي انتشر في أنحاء جسدها ، لم يغب طويلاً ، وحين عاد بالقهوة ، لم يكد يدخل الغرفة حتى وقف محدقاً في السرير حين رأى سالم يكاد يذوب في أمه ، ملتصقاً بها ، يشدها إليه ، ويدفع جسده إليها ، كأنها أدرك بأنها راحلة .

احتضنته ، محاولة إخفاء دموعها..

حاولت رباب الاعتدال في سريرها حين رأت زيدا يدخل حاملاً صينية القهوة ، لكنها لم تستطع ، فاستسلمت لزيد الذي أسرع لمساعدتها.

- لا بأس عليك ، أنت بحاجة إلى الراحة ليس أكثر ، سوف تتعافين .

- أعطني القهوة ولا داعي لمجاملتي ، أنا مريضة وأعرف ذلك ، لكنني أنسى أحياناً حالي ، عليّ أن أعود ذلك .

نظر زيد إليها لكنه لم يستطع مواصلة التحديق بها حين التقت أعينهما ، استدار نحو فنجان القهوة ، إذ لم يجد ذريعة أخرى للهرب من عينيها .

خيم الصمت على المكان ، ولم يقطعه سوى صوت أم زيد التي دخلت تسأل عن غياب زيد وسالم ، ابتهجت حين رأت رباب جالسة في سريرها تحتضن سالم ، فيما جلس زيد على طرف السرير ، يداعب يد رباب ويربت عليها كأنها يطمئنهما.

تقاطر الجميع ، أم زيد وبعض الجارات ، إلى غرفة رباب ، ملتفين حول سريرها ، غير مصدقين تعافيتها ، حتى ضاق المكان بهم ، تعالت أصواتهم ، واختلط حديثهم ، فلم يعد أحدهم يفهم ما يقوله الآخر ، بدت رباب منزعة ، انسل وقد لاحظ انزعاجها ، في مبادرة قد يفهمها الآخرون ويتبعونه ، لكن أحداً لم يغادر ، انتظر قليلاً ثم عاد إلى الغرفة وقد قرر أن يتصرف بنفسه .

- شكراً لكم ، أرجو إخلاء الغرفة ، تريد رباب أن تنام ، شكراً

...أنت تظلميني يا رباب ، بقدر ما شدي الرحيل والترحال ، بقدر ما شدي شيء ما في هذا الوطن ، شيء لا أعرف كنهه ، لكنني أعرف أنني كنت أرحل وفي داخلي وازع ما ، كأني أبحث عن شيء ضاع مني ، أركض خلفه ولا أدركه ، ما زلت أبحث عنه فلا أجده ، حتى بعد عودتي ، ما زلت أبحث عنه ولا أجده ، غريب أنا ، أم هي البلاد غريبة ؟! حتى النَّاس ، لم يعودوا أولئك الذين عرفتهم ، كل شيء تغير ، ليس النَّاس فحسب ، بل المكان أيضاً ، الكل تغير ، أنا ، أنت ، النَّاس ، المكان ، الحقيقة الوحيدة الباقية ولم تتغير ، الاحتلال ، الاحتلال يا رباب الكابتن روني وحده لم يتغير ، لا يزال كلب الحراسة - الذي عرفته - ، يلاحقنا أينما ذهبنا وحيثما حللنا .

أفاق على صوت المؤذن ينادي...

- الصلاة خيرٌ من النوم .

- أي نوم يا سيدنا الشيخ ؟!

نهض ثانيةً حين أدرك حاجته إلى فنجان آخر من القهوة ، كانت أمه سبقته إلى المطبخ ، وقد أنهت صلاتها للتو ،

كانت الشمس تجهد في شق طريقها نحو الأفق البعيد متناقلة ، غير راغبة في المغيب ، أحسَّ بها تصعد متعبة كأنها راغبة في النوم ، تتشاءب تارةً وحين تدرك حال الراغبين بها ، المنتظرين ضيائها تشد الرجال من جديد وتندفع في رحلتها اليومية نحو كبد السماء .

انشغل زيد وأمه بتجهيز رباب ، فيما كان صوت السيارة التي ستقلهما إلى القدس ينذر بوصولها وجاهزيتها للانطلاق.

الطريق إلى حاجز قلنديا سالكة ، انعطف السائق يساراً ، متحاشياً المعبر الرئيس إلى القدس متوجهاً إلى قرية جبع ثم حزما حيث المعبر هناك أقل تعقيداً ، وفرص

بطعم الجمر

قلنديا . حيث أجهزة الأمن والمخابرات أقل انتشاراً من معبر

وواصل السائق طريقه نحو حاجز حزما ، انعطف يمينا عند قرية جبع ، فيما حُدّق
زيد في آدم مستعمرة على يساره .

- يوم أبعدونى كانت بيوت هذه المستعمرة لا تزيد عن العشرين بيتاً مؤقتاً، انظر إليها اليوم كُثرت وامتدت ، حتى فاق عددها الخمسين بيتاً...

- والحبل على الجرار...

ردّ السائق ، وصمت .

توقف قبل وصوله إلى الدوّار ، حين رأى طابور السيارات المنتظرة دخولها إلى المعبر ، لم يفكر كثيراً ، واصل سيره متخذاً مساره نحو عناتا ، التي تبدو غير بعيدة عن معبر حزما ، تتداخل بيوت عناتا القرية ، وعناتا المخيم ، بعضها يتبع القدس ، وبعضها الآخر يتبع بلدة عناتا ، وتداخلها هذا دفع الكثيرين إلى الانتقال إليها ، ما أدى إلى تضخم القرية واتساعها ، حتى أصبحت أشبه بالمدن الحدودية ، معبراً للمتسللين إلى القدس ، والهاربين من عيون الشرطة ورجال الأمن الذين يحجبون المنطقة ليلاً نهاراً ،

طريق حزما أو كما يطلق عليها أهل المنطقة طريق أبو جورج ، وهو رئيس العمّال الذين شقوا الطريق أيام الانتداب البريطاني على فلسطين ، كان في حينه طريقاً لعبور العربات العسكرية وظل كذلك زمن الحكم الأردني وزادت أهمية الشارع بعد إقامة عدد من المستعمرات ، والأهم من ذلك إقامة واحد من أكبر معسكرات جيش الاحتلال ، حيث توسع وجرت عليه إصلاحات هامة حتى أصبح لائقاً للمستعمرين والإسرائيليين الذين يستخدمونه كما هو حال الشوارع والطرق التي يسلكها هؤلاء في أنحاء الأراضي المحتلة ، إذ من السهل عليك

معرفة هوية العابرين لأي شارع في الأراضي المحتلة ، من حال شوارعها ،

لم تتغير الطريق إلى عناتا إلا في بعض منعطفاتها ومقاطعها حيث توسعت ،
ونالها طبقة أخرى من الإسفلت ، تمهل السائق عند اقترابه من مفترق عناتا ،
انعطف يمينا ، وكاد أن يتوقف لولا أن جندي حرس الحدود أشار له بمواصلة
السير.

- الله ستر... علّق زيد .

- لو أن لوحة السيارة فلسطينية لأوقفنا ، أجب السائق محدقاً
في المرأة كأنها يطمئن على سلامتهم مواصلاً سفره نحو عناتا ،

تعج القرية بالحركة وأصوات الباعة ، فقد اتسعت وامتلأت بأهل القدس الذين
غادروها بعد أن هدمت قوات الاحتلال مساكنهم وأحياءهم ، فضاقت بهم
أحياء المدينة بعد أن احتلها المستوطنون فتمددت قرية عناتا ، واتصلت بالمخيم
الذي حمل اسمها ، رغم محاولات إلحاقه بضاحية شعفاط المحاذية للمخيم .

كانت الطريق مزدحمة بالعابرين ، ومعظمهم مثل زيد لا يملكون تصريحاً
للدخول إلى القدس ، يأتون إليها كل يوم ، أشغالهم وأعمالهم وارتباطاتهم
بالقدس ، وسلطات الاحتلال لا تمنحهم تصاريح دخول ، لكنّ مخابراتهم يعرفون
أنّ المئات منهم يدخلون إليها ، يراقبونهم ، ويرونهم يعبرون ولا يتدخلون إلا
عند الحاجة ،

الطريق سالك ، رغم الازدحام الشديد ، دخل الشارع الرئيس ، ثم شارع شعفاط
نحو التلة الفرنسية ، وواصل باتجاه وادي الجوز ، لكنّ السائق انعطف يساراً
قبل أن يصل إلى المنطقة الصناعية وصعد جبل الزيتون باتجاه الجامعة العبرية
دون أن يعكر طريقه أحد ،

قبل أن يدخل بوابة مستشفى المطلع ، فجأةً اعترضتهم سيارة جيب ، توقف

بطعم الجمر

السائق ، لحظات ، توقفت سيارة فورد بيضاء ، ترجل منها أحدهم وتقدم نحو زيد ،

- أما زلت تذكرني يا زيد ؟ .

- وكيف لي أن أنساك وأنت لم تتركني لحظة يا كابتن روني!!!...

لم يستغرق ذلك سوى دقائق معدودات ، دخل سيارته وغادر المكان ، ثم تبعته سيارة الدورية دون أن يتدخل أحد من أفرادها ، كأنها أراد أن يقول لزيد ، أنا هنا ، أتبعك كظلك ، وسأنال منك متى أشاء ،

فهم زيد الرسالة ، واستوعب ما أراد أن يقوله الكاتبن روني ، لكنه أثر الصمت حين نظر إلى رباب وهي تكاد لا تعي ما يدور حولها ، أشار للسائق أن يتقدم نحو مدخل الطوارئ طالباً منه الانتظار ليس بعيداً ، فالأمر لا يستغرق طویل وقت ،

توجه زيد إلى إدارة الطوارئ ، طالباً العون لنقل رباب من السيارة إلى غرفة الطوارئ لمعاينتها والمباشرة بعلاجها بالكيمياء...

لم ينتظر طويلاً حتى انتهت لكنه انتظر أكثر حتى ملكت نفسها واستطاعت مغادرة المستشفى، انطلق السائق عائداً إلى رام الله ،

- عد من الطريق التي جئنا منها ، وحاول أن تحافظ على هدوءك ،

قال زيد مخاطباً السائق...

دخلوا عناتا دون أن يعترضهم أحد ، اطمأن زيد حين انعطفوا يساراً نحو الشارع الرئيس المؤدي إلى حمزا ، كان زيد يحدق في الطريق لعله يلمح الكابتن روني ،

دقائق قبل أن يصل المفترق المؤدي إلى أريحا يمينا ورام الله يساراً ، أبطأ تحسباً لإشارة من حرس الحدود الذين وقفوا قبل المفترق ، كاد أحدهم يشير إليهم بالتوقف ، لكنه تراجع حين تبين لوحة سيارتهم المقدسية ، فأشار لهم بمواصلة السفر ، انعطف يمينا ، نحو طرف قرية حزما الغربي ، متجنباً حازم حزما وطابور السيارات المنتظرة عبورها إلى القدس بعد تفتيشها والتأكد من هوية العابرين ، فإن كانوا من أهل القدس عبروا وإن لم يكونوا أعادوهم ، وربما تعرضوا للاعتقال أو تعرضوا للاستجواب مصحوباً بالإهانة والشتائم والضرب والركل بالأرجل...

آه يا أبا زيد ، الموت أقصر الطرق إلى الراحة ، القابض على دينه ، كالقابض على الجمر... نعم ، نحن في زمن يُحسد الميتون على موتهم ، رحلت وتركنا نمشي على الجمر ، طلباً للخلاص وهرباً من جهنم ،

- إنَّ الله عادل ، ولأنه كذلك ، فليس من العدل أن يعذبنا مرتين ، مرة على أيدي الإسرائيليين ، ومرة في جهنم ، همست رباب ، كأنها ترد على زيد ، فيما أفاق زيد من شروده ، مدَّ يده إلى رباب ، يربت على يدها ، كأنها يطمئنها .
- لا عليك ، سيكون كل شيء على ما يرام ، لا تقلقي ولا تفكري بشيء .
- ثمة أمر ما ، انظر ، يتعالى الدخان ، يبدو أنَّ اشتباكات تجري بين شباب مخيم قلنديا وقوات الاحتلال ، قال السائق فيما كان يبطئ مواصلاً سيره بحذر .
- ماذا سنفعل ، يجب أن نبتعد عن رائحة الغاز .
- هناك طريق جانبية ، عبر كسارات الطريفي ، الطريق سيئة لكننا لا فملك غيرها مخرجاً.

- لا بأس ، افعل ما تشاء ، المهم أن نعبر إلى رام الله بسلام ،
- لا عليك ،

انعطف يميناَ حيث الطريق الترابي المؤدي إلى الكسارات ، كان عليه السير بحذر شديد متجنباً الحفر والمطبات ، في شارع ضيق ، تكاد تنقلب السيارات تجنباً لاصطدامها ، كأنَّ الغبار المنبعث من السيارات التي راحت تشق طريقها ، وتتسابق للخروج من مقطع لا يزيد طوله عن كيلومتر واحد ، عبر طريق متعرج وغاية في السوء بفعل السيارات الكبيرة ، المحملة بالحصمة بأنواعها ، والجرافات والمعدات الثقيلة ، حتى صار الشارع مغطى بالتراب والحصى ، تختفي تحتها الحفر ، التي تفاجئك ، فإن تعطلت سيارة ما ، تعطل السير على الشارع لساعات

بحذر شديد ، تقدم السائق بعد أن أغلق النوافذ جيداً تحاشياً للغبار ، فيما واصل زيد طمأنة رباب.

أحس بارتياح حين سمع السائق يقول :

- أعتقد أن قطع الطريق لن يستغرقنا طويلاً ، إذ ليس هناك سيارات كثيرة في هذا الوقت من النهار .

قال السائق ذلك ، فيما واصل سفره ، وعينه على الطريق وقد شارف على الدخول في أزمة المخيم ، ليس بعيداً عن المعبر ، حيث أصوات الرصاص لا تزال تُسمع ، رغم الصياح وأصوات الشباب يحذرون بعضهم من جنود تسللوا محاولين اعتقال بعضهم ،

امتلاً الرقاق بالشباب ، هرباً من جنود الاحتلال ، فجأة توقف السائق ، مد زيد بصره يستطلع الأمر ، وقبل أن يسأل عن الأمر ، انفتح باب السيارة ، وان دفع شاب يناهز العشرين من عمره ، فيما صرخ شاب آخر بالسائق :

- أسرع ، معك جريح ، إنطلق به إلى مستشفى رام الله قبل أن ينزف ما تبقى من دمه .

كانت رباب في المقعد الخلفي تسند رأسها إلى كتف زيد ، تكاد لا تعي ما يدور حولها ، حاول الشاب حشر نفسه في المقعد الخلفي ، لولا أن زيداً بادره .

- السيدة مريضة والمقعد لا يتسع لأربعة ركاب ، اذهب واجلس في المقعد الأمامي ،

كاد الشاب يطلب من زيد أن يفعل ذلك ، لكنه تراجع حين رآه حائقاً ، طلب إلى السائق مواصلة السير ، وقفز إلى المقعد الأمامي فيما انطلق السائق نحو الشارع الرئيس المؤدي إلى مدخل مخيم قلنديا ،

كان صوت الرصاص لا يزال يُسمع عبر الزقاق الأخير المؤدي إلى السوق المحيط بمسجد المخيم ، فيما ازدحم الشارع الوحيد المؤدي إلى المدخل الرئيس بالناس ، بعضهم جاء هارباً ، وآثر الابتعاد عن مرمى الرصاص ، وبعضهم الآخر ابتعد عن الغاز الذي يكاد يقطع أنفاس القريبين من المعبر ،

- قف عند ذاك الدكان...

أشار الشاب الجالس في المقعد الأمامي إلى دكان صغير ، فتح باب السيارة قبل أن تتوقف نهائياً ، قفز إلى الدكان ، وعاد حاملاً بيده بعض رؤوس البصل ، فلحقها بين يديه ، واحدة تلو أخرى .

- خذ ، هذا علاج للغاز فعّال...

أخذ زيد فلقة وراح يمررها قرب أنف رباب ، فيما راح الشاب يفعل الأمر ذاته للشاب الجريح بعد أن أعطى السائق واحدة أخرى...

تقدم السائق نحو المدخل المؤدي إلى شارع القدس ليس بعيداً عن المعبر ، توقف

بطعم الجمر

حين رأى من بعيد حشداً من السيارات ، سأل أحدهم مستوضحاً ، أفاده بأن دورية تقف عند المدخل ، وتفحص وثائق كل سيارة ، تدقق بركابها ، والشباب يرشقونها بالحجارة ، فيما يرد الجنود بقنابل الغاز ، والرصاص المطاطي ،

بحث السائق عن طريق اللاتفاف والعودة ، استدار نحو اليمين ، حين أشار الشاب بأن يسلك طريقاً يعرفها ، فهو ابن المخيم ويعرف أزقته ،

انطلق السائق عبر زقاق فرعي يفضي إلى بلدة كفر عقب المحاذية للمخيم ،
شافاً طريقه بيسر وسلاسة ، بعيداً عن وسط المخيم وازدحام السيارات والناس .

لم يستغرقه الدخول إلى رام الله وقتاً طويلاً ، التف يساراً نحو مستشفى رام الله ، دخل إلى الساحة المؤدية إلى مدخل الطوارئ ، فيما تهياً الشاب للانطلاق نحو النقالة لأخذ الجريح وإسعافه .

تتفسر زيد الصعداء حين رأى السائق يبحث عن طريق يأخذه بعيداً عن المستشفى ، مدّ يده إلى رباب كأنها يطمئنها ، فيما حاولت رفع رأسها والنظر إلى زيد ، لكنها أحسّت بتعب شديد ، أعادها إلى حيث كانت ، ألقت برأسها إلى كتف زيد وهي تتمتم كلمات لم يفهما ،

لف ذراعه حولها ، وراح يربّت على كتفها ، تمنى لو عاد به الزمن إلى تلك الليلة في حيفا ، لو كان يملك قدره ، لأوقف عقارب الساعة وأعاد رسم ما حدث على نحو مختلف ،

آه... لو عاد بي الزمن سوف أغیر كل شيء ، كل شيء ،

للحياة وجهان يا زيد ، لو كنا نملك قدرنا ما كنا راضين به ،

حمداً لله على السلامة ، لقد وصلنا أخيراً... قال السائق مخاطباً زید...

8

... رباب ..حبييتي ، لا تستعجلي الرحيل ، ما زال عندي بحر من الحكايات ، ليتك تسمعينها ، لقد عدت من ترحالي لأحكي لك ما تبقى من حكايات لم يتسن لي روايتها لك ، العمر قصير يا رباب ، لا يكفي لرواية حكاياتنا ، بل إنه قصير إلى الحد الذي لا نملك فيه قرار رحيلنا ، وتوقيته ، رباب ...لا تستعجلي الرحيل ، لا يزال لدينا حكاياتنا التي لم تكتمل... ها أنذا عدت لنكملها معاً.. فلا ترحلي.. ليس عندي من أكملها معه... أرجوك... لا ترحلي...

بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه ، إذ بالكاد سمع صوته ، وبالكاد تحركت شفاته ، تحشرج محاولاً دفع لعبه إلى حلقه ، حين أحس به ينغلق على ذاته ويتحجر ، أحس بها تبتعد عنه ، اقترب منها مداعباً أذنها ، مثلما كان يفعل في الأيام الخوالي ، كانت تحب ذلك ، تستسلم لذراعيه ، يضمها إليه ، تغفو كطفلة هدهدتها حكايات جدتها فاسترسلت في حلمها ، واستسلمت لنعاس تسلل إلى عينيها ، احتضنت أحلامها ، وغفت .

انسحب من على السرير ، وقف قليلاً قبل أن يغادر الغرفة ،

- بابا... ، أود أن أشرب الشاي معك...

كان سالم يقف قريباً من باب المطبخ ، التفت زيد إلى ابنه وقد فوجئ بطلبه ، غير أن سالم لم ينتظر جواب أبيه ، دلف إلى المطبخ ، كانت تلك المرة الأولى التي يطلب سالم من أبيه مثل هذا الطلب ، فيما توجه زيد إلى العريشة ، محاولاً إخفاء ابتسامة ارتسمت على شفتيه ، وقد غمره إحساس بالفرح ، لم يعرفه من قبل ، ها هو سالم يبادر لفتح حديث مع والده ، ألقى بجسده على الديوانية متمتماً...

- إن كبر ابنك خاويه !!

ترى ماذا يريد سالم ؟!

مهما يكن ، فقد خالجه شعور بالفرح ، لم يعهده من قبل ، كأنه اكتشف أبوته الآن ، ها هو يتعرف على ابنه ، ابنه الذي أصبح رجلاً ، كان سالم لا يزال طفلاً في السنوات الأولى من عمره ، أمضى طفولته يوم أبعدوا والده بعيداً فعاش طفولته مثل سمكة تسبح وحيدة في بحر متلاطم الأمواج ، تزدحم فيه حيتان تتربص بالعابرين ، ولا توفر أحداً ، كبر سالم وكلاب الاحتلال تطارده وأقرانه أينما ذهبوا ، كانت كوابيس الاحتلال تلازمه وتقض مضجعه ، يبحث عن والده فلا يراه إلا لمماً ، خلف القضبان تارة ، أو بالسر متسللاً بعيداً عن عيون الاحتلال ، حيث ظل الكابتن روني يلاحقه وأمه رباب حتى بعد إبعاد زيد ، عاش سالم مثقلاً بالخوف والانتظار ، يسرق الاحتلال عمره ، دون أن يملك ما يرد طفولته ، ويبعد عنه شر الاحتلال .

كان النهار في آخره ، وظلال التلال تهبط إلى الأودية ، وزيد يحرق في السفوح المقابلة ، كأنها يحصي شجر الصنوبر المنتثر بين شجر الزيتون الرومي القديم ، فيما استوقفته شجرة بلوط ، نهض واقفاً ، حين رآها هناك ، تحمل الزوادة وتذهب إلى البلوطة متخفية بلباس بدوية ، تخفي الزوادة هناك وتعود أدراجها إلى العريشة ، فيما يتسلل زيد إلى البلوطة ، يأخذ زوادته ويعود كما جاء ، كانت رباب شريكاً حقيقياً له ، تقاسمت معه مرارة العيش ولحظات الانكسار ، أما لحظات الفرح ، فقد كانت على قلتها ، تمضي كلمح البصر ،

قطع سالم جبل أفكار والده مقتحماً خلوته ، وضع صينية القهوة ، وحقق في والده ، الذي لم يفق من شروده بعد ،،،

بابا... نحن اليوم ، في بحر متلاطم ، كل من يبحر فيه ، لا بد أن ينتهي الأمر به إلى الغرق ، بعضنا يصمد ويصارع الموج ، وبعضنا الآخر يضعف وينهار ، فلا يجد

غير الاستسلام لقدره ، يغلبه الموح فيأخذه بعيداً ، ينزلق إلى قاع المحيط ، يعتمد مصيره على صلابة قاربه وقدرته على التحمل والصمود في وجه العواصف والموج العاقي ، الموت يا والدي ضيف ثقيل ، وغير مرحب به ، يأتينا من دون ميعاد ولا ينتظر دعوة من أحد ، يقتحم حياتنا ويأخذنا إلى حيث لا ندري ، أليس هذا ما يحدث الآن ؟!

إنه الموت يا والدي ، لا شيء يشبهه على الإطلاق ، يخطف أحبتنا ويتركنا عاجزين لا نقوى على فعل شيء ، نعيش حياتنا ، نغرق في أحلامنا ولا يخطر ببالنا أننا سرحل ذات يوم ، ومن ممّا سيرحل قبل الآخر ، تأخذنا أحلامنا بعيداً ، يفجؤنا الرحيل ، نفقد توازننا ، حين تدهم أحلامنا أعاصير لم تخطر ببالنا ، يتقاذف الموج قاربنا ، نبحت عن مستقر وعن قشة نتعلق بها ،

بابا ، أنا ابنك ، ابنك الذي التقيته شاباً ، وتسمعه لأول مرة ، نعم ، أنا ابنك سالم ، ربما أشبهك ، وان اختلفت عناصر تشكلك في بعض تفاصيلها ، فأنا أحملها بشكل أو بآخر ،

لقد تعلمت منك الكثير ، كانت أمي تقول لي ، لو كان أبوك معنا لفعل كذا وكذا ، لكن أكثر ما تعلمته منك قولك الذي كانت أمي تردده لي : “هناك دائماً ما يستحق أن تدافع عنه” ،

كان سالم يتحدث إلى والده ، فيما كان زيد يحرق به غير مصدق ما يسمع ، ها هو ابنه يبذه بل ويتفوق عليه ، شاب مليء بالحياة ، يعرف أين يقف ، وإلى أين يتجه ،

فجأة ، انتفض سالم وركض نحو زاوية البيت ، لكنه عاد مسرعاً إلى والده ،

- بابا ، أنا لست هنا ولم ترني منذ أيام ، اسمع ، قل لهم أنني في الجامعة وسوف أبقى هناك حتى نهاية الأسبوع ،

كابتن روني ، اعتقدت أني لن أراك ثانية ،

- قلت لك سنلتقي يا زيد ، وها أنا أوفي بوعدني .
- وأنا وعدتك وسوف أوفي بوعدني .
- أين ابنك يا زيد .
- ابني في كل مكان يا كابتن روني ، انظر حولك وسوف تجده ، أنت مجنون ، سوف يأتي يوم تلعنوا كل من كتب حرفاً في مشروعيكم .
- لماذا لا ترحلوا إلى الأردن أو حتى سوريا والعراق ، أو أي بلد آخر ؟
- نحن في وطنناو لن نرحل عنه
- هذه بلادنا ، وعدنا بها الرب ، كنّا هنا قبل ألفي عام وها نحن نعود إليها كما وعدنا بها الله...
- الله لم يعدكم ، وعدكم بها الانجليز ، وإن كان الله وعدكم كما تقول فأنت تنفي عنه صفة العدل ، إذ كيف يخرّب الله بيتاً ليعمر آخر ، الله عادل ولا يمكن أن يفعلها ، إلا إذا كان لكم إله آخر غير إلهاها وإله العالم بأسره .
- انتشر الجنود متخذين مواقع قتالية ، حال سماعهم طلقات رشاش ، فيما تأهب الكابتن روني لمغادرة المكان ، حين انهالت الحجارة عليهم وتعالّت أصوات الشباب بالشتائم وسقوط الاحتلال مطالبينهم بمغادرة المكان ،
- سوف نلتقي يا زيد ، أعدك بأننا سوف نلتقي .
- وأنا أعدك بأنني سأكون بانتظارك .
- قل لابنك أن يسلم نفسه ، وإلا سيضيع كما ضعت أنت ، قل

له أن يتعلم مما جرى لك .

- لقد تعلم فعلاً ، وأنا سعيد بما تعلم ،

كانت الحجارة تنهال عليهم من كل صوب ما دفع الكابتن روني إلى المغادرة وإعطاء الأمر للدورية بالانسحاب ، تقاطر الجيران للاطمئنان على زيد ، وسؤاله عما جرى ، فيما كانت عيناه تجول الوادي والتلال المقابلة ، لعل ولده سالم يرسل إشارة ، أو ربما سمع إطلاق نار أو أو... كان القلق بادٍ عليه ، ولم يستطع مجازاة جيرانه في أحاديثهم فغادروا واحداً تلو الآخر ، وربما جماعات ، فيما كانت بعض النسوة تغادر مودعة أم زيد ، داعين لرباب السلامة والعافية ، فيما تقدمت من العريشة حيث كان زيد جالساً منهكاً ، حاول أن يخفي قلقه ، ويلم تشبته ، لكن أم زيد لم يخف عليها أمر زيد فبادرته:-

- ما بك يا بنی ؟!...

- اعتقدت أنَّ الحياة بدأت تبسّم لي ،

- أمرك غريب يا بني ، كأنك لم تعرف الاحتلال ، ولم تعرف طبعه ،

- ظننت أنَّ الاحتلال انتهى ، أو على الأقل سوف يبدأ بالاندحار.

- الاحتلال باقى ، خرجوا من الباب وعادوا من الشباك ،

يبدو أن سذاجتی فاقت کل حد .

- إنها كذلك يا زيد ، فهل أنت نادم على عودتك ؟!

- أبداً ، لكن العيش في هذا الوطن ، يحتاج لكثير من الشجاعة ونكران الذات .

- ضيقت عمري في البحث عن وطني ، وحين سبحت لي فرصة لقائه والعيش فيه لم يكن ذلك غير سراب ، يبدو يا أم زيد أننا لم ندفع ما يكفي لسداد مهر عروستنا حتى نستحقها.
 - ربما دفع الآخرون أكثر مما دفعنا ! فاستحقوها أكثر منّا .
 - دفعنا الكثير ، وهل لدينا أكثر مما دفعنا !؟
 - نعم لدينا ، انظر كيف حولنا مشروعنا الوطني إلى مشروع شخصي ، كل منّا منشغل في تدبير أموره الشخصية ”والي راح ، راحت عليه“ ، هذا ما أرادوه لنا ، وقد نجحوا في ذلك .
 - سوف أذهب لأتفقد رباب ،
 - أهرب ، كعادتك ،
- التفت إلى والدته ، ولم يجد ما يرد عليها ، فمضى في طريقه كأنما يهرب منها ومن مواجهة صراحتها...
- تكورت أم زيد على الأريكة وأطلقت العنان لدموعها ، لعلها تغسل الحزن الذي انحبس طويلاً ، وهي التي أمضت عمرها تنتظر من يطمئنها عن زيد ، أو منتظرة أمام مكتب إدارة الاحتلال المدنية ، مستجدية تصريحاً بعد آخر لزيارته في السجن ، بعد رحيل زوجها وتحملها مسؤولية العائلة ، حملت همّ الجميع ، لم تتذمر ولم تشك من تعب ، أدمنت الجلوس تحت الدالية في الصيف ، فإن حل الشتاء بحثت عن ركن قصي في المطبخ ، تقف عند النافذة مطلقة العنان لنظرها ، يجول أنحاء التلال المحيطة ، تحديق في الأفق ، لعلها تلاحظ خيطاً يوصلها بزيد ، تستحضره من مخبئه ، وحالها يقول :-
- آه يا زيد ، أما آن لأملك أن تستريح !؟

obeikandi.com

9

خيّم الصمت على الوادي ، فيما كانت أوراق الزيتون تلمع في انعكاس ضوء القمر عليها وقد بللها الندى ، بينما كانت أم زيد تريح رأسها المتعب على باطن كفها ، تقاوم نعاساً داهمها وأثقل جفونها فاستسلمت لحلم لازمها سنوات طويلة ، الحية الرقطاء ذاتها ، تقفز من شجرة إلى أخرى ، تطارد زيداً وتحاول الإمساك به ، لكنها كانت تصحو في كل مرة قبل أن تتمكن منه ، تلعن الشيطان وتعوذ بالله منه ، لكنها أفاقت الليلة على الأفعى تحلق فوق منزلهم ، تهبط نحو العريشة ثم لا تلبث أن تطير دون أن تلمس أحداً... أفاقت أم زيد مذعورة... جالت ببصرها العريشة وانتقلت بناظرها صوب الباب ، وقد أدركت أنّ ثمة ما يدعو إلى القلق ، فقد ذهب زيد منذ ساعات لتفقد رباب ، ولم يعد ،

نهضت أم زيد وتقدمت نحو الباب المغلق بحذر ، أصاحت السمع ، وأطرقت لعلها تسمع ما ينبئها بخبر ما ، ظلت تتمنى طول الوقت ألاّ تسمعه... الصمت مرعب في بعض الأحيان ، لكنه أبلغ من الكلام في كثير من الأحيان ، مدّت يدها إلى الباب ، وانسلت إلى الداخل عيناها على غرفة نوم رباب ، وأذناها في أقصى حالات التأهب لسماع ما يجري خلف الأبواب المغلقة ، ازداد قلقها حين وقع نظرها على باب غرفة نوم رباب فقد كان مغلقاً ، تقدمت على رؤوس أصابعها ، حين سمعت همساً وكلاماً لم تدرك كنهه في البداية ، لكنها أحست براحة ، إذ إن ذلك يعني أنّ رباب بخير ، لكنّ اطمئنائها تراجع حين سمعت أصواتاً مختلفة ، تقدمت نحو باب الغرفة بحذر شديد ، وهي مشدودة إلى الأصوات القادمة من عمق الغرفة محاولة تبين أصحابها واستيضاح أمر ما يجري ، وما يدور هناك ،

بدأت الأصوات تتضح ، وقد أحست بأذنيها تغادرانها ، وهي تجهد في الاصغاء

همست أم زيد في أذن سالم وهي تشدّه إليها ، وتدفع رأسه إلى صدرها... تقرص أذنه وتشدّها .

- أنت ولد عاق ، ألا يكفي ما فعله والدك بي؟! أنت تعيد سيرته وتتبع خطاه ، فهل عليّ أن أعيش ما تبقى من عمري أتبعك من سجن إلى آخر؟!

- يا أم زيد ، يا حبيبتى ، إنهم يخدعوننا ثانية ، هم لا يريدوننا أحياء على هذه الأرض ، اخترعوا إلهاً وأنطقوه بوعد أباح لهم تدمير بلدنا وتشريد شعبنا وإقامة وطن لهم على أنقاض وطننا ،

أشار زيد لهما بمغادرة الغرفة ، وقد رأى رباب تفتح عينيها مصغية لحديثهما ، وحين رأتهما يغادران الغرفة ، أشارت بكفها ، كأنها تدعو سالم للبقاء معها ، نظر إليها ، فيما غادر زيد وأمه الغرفة ، اقترب سالم من أمه لكنها أشارت بيدها إلى الباب ، فهم أنها تطلب إليه أن يغلقه ، توجه إلى الباب شارد الذهن ، محاولاً تفسير ما يجري ، مستحضراً عدداً من الأسئلة التي تنتظره ، بدا سالم مرتبكاً ، رغم محاولاته استحضار أفكاره واستعادة توازنه ،

- تعال يا بني... تعال هنا...

تقدم سالم نحو أمه ، فيما كانت تنظر إليه محاولة إخفاء ابتسامة ارتسمت على فمها لم تستطع مقاومتها .

- زيد ، كأنك زيد أمامي بشحمه ولحمه...

- من شابه أباه ما ظلم..

رد سالم وهو يبتسم .

- هيا يا بني ، لا أريدهم أن يمسكوا بك ،
 - اطمأني يا أم زيد ، ما عدت أدري من ممّا يطارد الآخر ، نحن أم هم ؟!
 - تعال يا سالم ، تعال بسرعة .
 - قَبْلَ أمه ، وانطلق خارجاً ، فيما كانت جدته تصيح :
 - غيّر طريقك ، اسلك طريقاً غير الطريق التي سلكتها من قبل ، إذ يبدو أنهم عرفوا مخبأك .
 - لا تخافي يا جدي ، لا تخافي ، هذه أرضنا وأنا أعرف منهم بدروبها ،
- ثمة أمور في حياتنا نجهل تفسيرها ، بعضنا يعيشها ويدخل في تفاصيلها ، وكلما أوغل فيها ، ازدادت غموضاً ، وبعضنا الآخر يأخذها من قصيرها ، يضعها جانباً ، وربما خلف ظهره ، ويهرب بعيداً عنها ، مؤثراً عدم الوقوع في أسرها .
- جلس زيد تحت العريشة ، التي اعتاد اتخاذها مجلساً ، مطلقاً العنان لشروده ، كأنها يبحث عن نهاية لمشهد تتحرك شخوصه على هواها ، دون أن يملك القدرة على تحريك أي منها ، نصّ مفتوح على كل الاحتمالات ، ولا يملك التنبؤ بأي منها .
- ابتسم بهرارة ، حين لمعت برأسه صورة صديق قديم ، صدم سيارته بشجرة زيتون رومية قديمة على جانب الطريق ، بين رام الله ونابلس ، وكاد يدفع حياته ثمناً لشروده ، تذكر كلمات صديقه القديم هذا حين ذهب لزيارته في المستشفى ، وسأله عن سر ارتطامه بشجرة الزيتون الرومية الكبيرة .
- ألم ترها يا صديقي ، إنها كبيرة ؟!
 - بلا رأيتها ، أقسم أنني رأيتها ، لكنني نسيت أنني كنت السائق ،

كنت أظن طول الوقت أنني مرافق للسائق وأجلس إلى جواره .

تذكر صديقه القديم هذا ، ابتسم في سرّه ، حتى كاد يضحك ، لكنه عاد إلى ذاته ، حين أدرك أنّ حاله اليوم يشبه حال صديقه القديم ، فراح يقلّب نظره بين الوادي حيث ولده سالم ، وبين غرفة النوم حيث رباب تصارع الموت ، لا تقوى على شيء ، بين هذا وبين عجزه عن فعل شيء لأي منهما ، انكفاً على نفسه ، وأثر الهرب كعادته .

أفاق زيد من شروده على صوت سيارة توقفت أمام مدخل البيت ، رفع رأسه ، التفت عيناه بعيني كابتن روني ، لم يحرك ساكناً ، لكنه بصق ، ليس على الكابتن روني فحسب ، وإنما على كل ما يمثله ، نهض وقد أثّره المشهد ، تقدم نحو مدخل البيت ، لكن الكابتن روني سبقه وانصرف ، فأكمل طريقه ، لكن أم زيد كانت تقف أمام الباب تدعوه إلى عدم الدخول .

- تعال معي ، لا داعي لإزعاجها فهي نائمة ،
- ليتنا نجمع أشياءها الصغيرة يا أمي... قال زيد مخاطباً والدته .
- لماذا نجمعها ؟!
- على الناس أن تدفن مع موتاهم أشياءهم التي كانوا يحبونها ، هكذا قالت لي رباب ذات يوم .

انطلق زيد نحو الدرج المؤدي إلى الوادي ، فيما كانت ام زيد تقف أمام الكابتن روني ، حائلة دون لحاقه بولدها ، الذي غيبه الوادي ، وتماهى مع أشجار الزيتون ، وأشجار البلوط والصنوبر والعليق الذي يغطي الحجارة متغلغلاً بين مفاصل السلاسل يشدها ويزيدها تماسكاً .

انتهت/كانون الثاني 2012

نحن يا بنى لا نملك أن نغير قدرنا وفى
 عنفوان شبابنا وانتشائنا بالعزَّة والقوَّة
 الزائفة ، نسفر من أقدارنا ونعتقد أننا
 قادرون على رسم خطوط مستقبلنا،
 غير أنَّ الفوف يملكنا حين نستشعر
 الفطر، فينتابنا إحساس بالعجز،
 يناصرنا فلا نملك غير الإستسلام لهذا
 القدر والاعتراف بالهزيمة، عندها تتمسك
 بدعائنا إلى الله واعترافتنا بضعفنا وعجزنا.
 اللهم لا نسألك ردَّ القضاء، لكننا نسألك اللطف فيه.